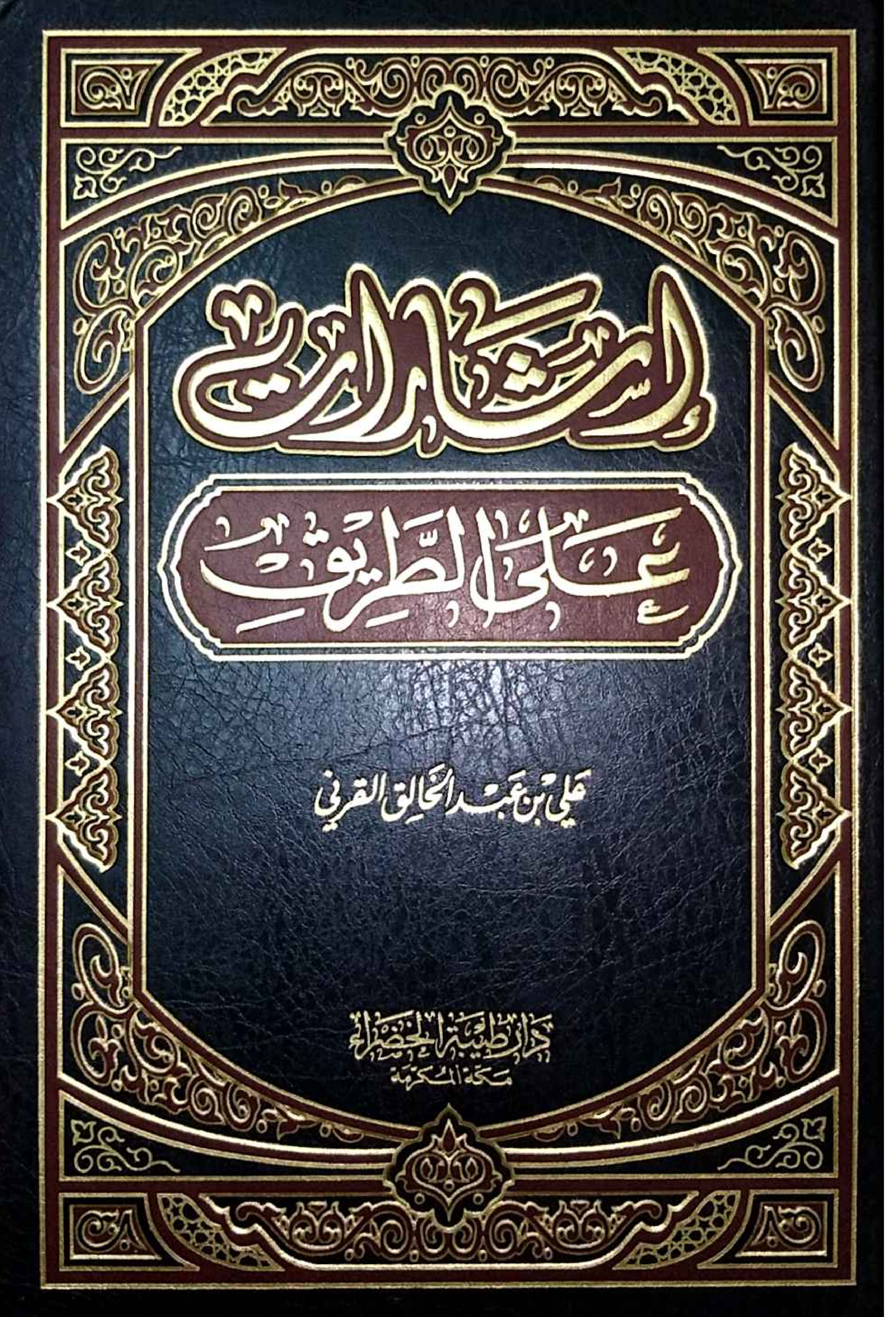

إشارات
على الطريق
علي بن عبد الخالق القرني
دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة

إشارات على الطريق

الطبعة الثانية

الطبعة الشرعية الوحيدة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار طيبة الخضراء

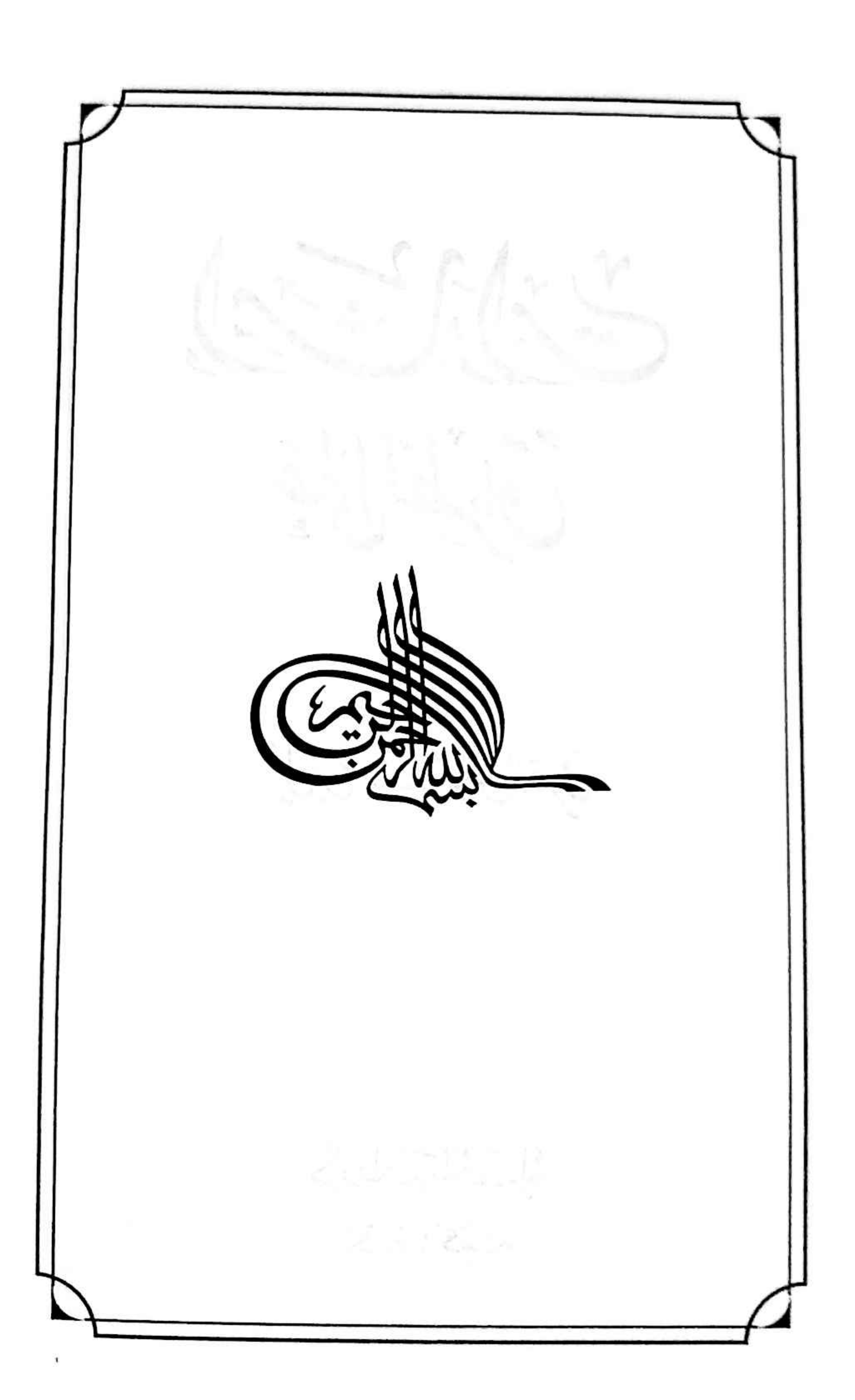
مكة المكرمة - العزيزية - بجوار الجامعة - ت: ٥٥٨٩٠٢٧٠ - ٥٥٨٩٧٨٠ - فاكس: ٥٥٦٣٩٨٦

إشارات

على الطريق

علي بن عبد الخالق القرني

دار طيبة الخضراء
مكة المكرمة



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن العمل الدعوي ميدان رحب، ومجال الحركة فيه بحر، إطاره الأرض مطلق الأرض، وميدانه الإنسان من غير حد للون أو جنس أو لغة. وعمل بهذه السعة يحتاج إلى تظافر الجهود، وبذل المجهود، لإيقاظ العقول الهاجعة، ونفخ الروح بوحي الله في الجثث الهامدة، وحداء هذه اليقظة الإسلامية الأصيلة لتنطلق في وضوح لغايتها فتعرف ما لها وما عليها، تتلمس الدواء لأدوائها، وتطرح اليأس في خضم آلامها ببعث آمالها؛ لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ومن هذا المنطلق كانت هذه الخواطر المتواضعة، المؤلفة من شاردة هنا وواردة هناك.

عنونتها بـ **(إشارات على الطريق)** للدعاة وطلبة العلم.

معتذراً فيها عن التقصير والخطأ ابتداءً. جمعتها من أقوال أهل العلم، محيلاً إلى كتبهم، وغير محيل أحياناً لبعد العهد، ليس لي فيها سوى الجمع والتأليف والصياغة، والفضل لله ثم لأهلها. ألقيتها في محاضرتين بالعلا وينبع قبل

بضع سنين، ولم يزل بعض إخوتي يلح عليَّ في جمعها في ورقات؛ لينتفع بها من يغلّب القراءة على الاستماع.

ثم قام أحد الإخوة محتسباً ـ وفقه الله لما يرضيه ـ بنسخها وترتيبها وترقيم آياتها، وتقديمها لي. فلم يكن عند ذاك بُدٌّ من النظر العاجل فيها، على خاطر كليل، وقلم غير بليل، وكان.

راجياً أن أكون أحسنت فيما استحسنت مما جمعت، وألا يكون وَرَماً ما استسمنت، على أنه لكل كاسد سوق، ولكل ساقط لاقط ـ كما قيل ـ والحال:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

* * * * *

وما بقيت من اللذات إلا   مخاطبة الرجال ذوي العقول

وإن كانوا إذا عدوا قليلاً   فقد أضحوا أقل من القليل

أرجو الله أن تؤتي أكلها، وأن يخلصها لكاتبها وقارئها، وأن يسوقها لأهلها الذين إن وجدوا خيراً عملوا به، وبالأجر للقائل دعوا، وإن وجدوا خللاً أصلحوا ونصحوا ودفنوا. كما أسأله أن يصلح بها المتربصين، الذين إن رأوا هفوة صرخوا وهتفوا كشيطان العقبة، وطاروا بها وفرحوا وجاشوا واستجاشوا. وهو ولي الذين آمنوا....

على الله وحده اعتمادي، وإليه وجهتي واستنادي، الصواب منه، والخطأ من نفسي وتقصيري، والخير أردت، وإلى الله أنبت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد. أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لله عبد.

أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته، ولا مطمع له في الفوز بالجنة والنجاة من النار إلا بعفوه ومغفرته. وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، خيرته من خلقه وأمينه على وحيه، جعل الله الذل والصغار على من خالف أمره، وسد إلى الجنة كل الطرق فلم يفتحها لأحد إلا من طريقه. صلوات الله وسلامه، على خاتم رسله وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره واستمسك بهديه وسنته.

اللهم إني أسألك الثبات والهداية، وأعوذ بك من الخذلان والغواية.

اللهم إني أعوذ بك أن أقول زوراً، أو أغشى فجوراً، أو أن أكون بك مغروراً.

إلٰــهي

ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله
وما أوضح الحق عند من هديته سبيله

إليك وجّهتُ يا مولاي آمالي فاسمع دعائِيَ وارحم ضعف أحوالي
ولا تكلني إلى من ليس يَكْلَؤني وكن كفيلي فأنت الكافل الكالي[١]

إلٰهي ارحم عبدك الذليل، ذا اللسان الكليل والعمل القليل، وامنن عليه في عمله بالتأثير والقبول، واكنفه تحت ظلك الظليل، يا كريم يا جليل... فالطريق شاق طويل، والزاد قليل، والأمل والرجاء فيك يا جليل...

(١) الكالي: الحافظ، من كلأه: إذا حفظه.

المقيم على سفر

قيل لأحد الحكماء: ما لك تدمن إمساك العصا ولست بكبير ولا مريض، فقال: لأذكر أني مسافر.

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها   عليّ ولا أني تحنّيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملها   لأعلمها أن المقيم على سفر[1]

الطرق كثيرة متعددة متشعبة أمام المسافر، وفي وسطها طريق واحد مستقيم، هو الموصل للغاية المنشودة لا غيره، مُعْلَن عليه: أن المقيم على سفر فلا يركن، وهذا هو الطريق الحق فلا يُتَنَكَّبْ.

الحاجة فيه ماسة للزاد والعدة، فمن أراد الخروج أعد العدة، وحدا حاديه عندها:

أواناً في بيوت البدو رحلي   وآونة على قتد البعير

لا تأذن الحكمة على هذا الطريق بالقفز وتجاوز التدرج، بل جوهر تخطيطه: مرحلة، مرحلة.

منا الأناة وبعض القوم يحسِبُنا   أنّا بطاءُ وفي إبطائنا سِرَعُ

(إنه طريق تعبيد النفس والناس لله رب العالمين، وإخراجهم من الظلمات إلى النور).

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبه، ج٢، ص٣٢٣.

ولا شك أنه طريق شاق طويل، لكنه مضمون ثابت مأمون. إن كنا نريد أن نصبح أمة مسافرة على هذا الطريق في قوة وعزة ورسوخ؛ فلا بد أن نخلق في أنفسنا غاية إرضاء الله، في منهج يؤدي إلى هذه الغاية: وهو الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، مع عزيمة على مخطط طويل الأمد، لا ننتظر فيه الوصول إلى الهدف النهائي بمجرد بدء الجهد، ولكن لا نزال ماضين، ومن سار وصل.

وعلى الله قصد السبيل.



مسافرون

يقول ابن القيم رحمه الله: (لم يزل الناس مذ خلقوا مسافرين، وليس لهم حط لرحالهم إلا في الجنة دار النعيم أو في النار دار الجحيم، والعاقل يعلم أن السفر بطبعه مبنيٌ على المشقة والأخطار، بل هو قطعة من العذاب واللأواء، ومن المحال أن يطلب في السفر عادة: النعيم والراحة واللذة والهناء، فكل وطأة قدم أو أنة من أنات المسافر بحساب، وكل لحظة ووقت من أوقات السفر غير واقفة، والمسافر غير واقف)[١]. فإذا ما نزل المسافر أو نام أو استراح؛ فهو على قدم الاستعداد للسير في قطع المفاوز والقفار. وقد انعقد المضمار وخفي السابق، والناس في هذا المضمار بين فارس وبين راجل، وبين أصحاب حمر معقرة.

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

* * * * *

وفاز بالسبق من قد جدّ وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب

* * * * *

إن السلاح جميع الناس تحمله ... وليس كل ذوات المخلب السبع

هلكى هذا السفر كثير وكثير، والناجون فيه قليل، الناجي فيه واحد من ألف وكفى، لا تعجب لهالك كيف هلك، ولكن اعجب لناج كيف نجا. الرواحل قليلة، والبعض في هذا السفر

---

(١) الفوائد لابن القيم بتصرف.

كإبل سائبة، لا تكاد تجد فيها راحلة، والبعض الآخر كإبل نجيبة صابرة نادرة، وأنعم بها من راحلة، النجائب في المقدمة، وحاملات الزاد في المؤخرة[١].

رُفعت لنا في السير أعلا ... م السعادة والهدى يا ذلة الحيران
فتسابق الأبطال وابتدروا لها ... كتسابق الفرسان يوم رهان
وأخو الهوينى في الديار مخلّف ... مع شكله يا خيبة الكسلان

* * * * *

إلى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد

ولا سبيل إلى ركوب هذا الطريق إلا بأمرين:

أحدهما: ألا يصبو في الحق إلى لوم لائم؛ فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه.

والثاني: أن تهون عليه نفسه في الله، فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال. فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت، وإلى الأرض أخلدت[٢].

ما لا بدّ منه:

لا بدّ للمسافر من رفقة، ومن عدة وعتاد، ودليل ومنهاج، واستعداد بزاد، وهدف ووجهة، ومحطات استراحة، ووسائل مثبتة، وإشارات مرشدة، ومركب.

فمركبه:

صدق اللجأ إلى الله، والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق

---

(١) مسافر في قطار الدعوة، عادل الشويخ، ص١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ باختصار.
(٢) زاد المهاجر إلى ربه لابن القيم.

الافتقار إليه بكل وجه، والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به، والانطراح بين يديه انطراح المكلوم المكسور الفارغ، الذي لا شيء عنده، فهو يتطلع إلى قيِّمه ووليّه أن يجده ويلمّ شعثه، ويمدّه من فضله ويستره.

فهذا الذي يُرجى له أن يتولى الله هدايته، ويكشف له ما خفي على غيره من الطريق[(١)].

دليله ومنهاجه:

أما دليله ومنهاجه: فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ القائل ـ كما ثبت عنه ـ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي»[(٢)]. ومن سلك طريقاً بغير دليل ضل، ومن تمسك بغير أصل ذل.

كن في أمورك كلها متمسكاً ... بالوحي لا بزخارف الهذيان
وتدبر القرآن إن رمت الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن

عدة المسافر وزاده:

أما عدة المسافر وزاده: فإيمان وعمل صالح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾[(٣)] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾[(٤)] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾[(٥)].

---

(١) زاد المهاجر إلى ربه لابن القيم.
(٢) صحيح الجامع الصغير (٢٩٣٧).
(٣) سورة الكهف: الآية ٣٠.
(٤) سورة الكهف: الآية ١٠٧.
(٥) سورة مريم: الآية ٩٦.

أين النفوس ترامى غير هائبة   أين العزائم تمضي ما بها خور

****

العلم بالحق والإيمان يصحبه   أساس دينك فابن الدين مكتملا
لا تبن إلا إذا أسست راسخة   من القواعد واستكملتها عملا
لا يرفع السقف ما لم يبن حامله   ولا بناء لمن لم يرس ما حملا

ومن الزاد:

إخلاص لله، وقصد بالعمل وجه الله لا سواه، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1] ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ...﴾[2].

فالفضل عند الله ليس بصورة الـ   أعمال بل بحقائق الإيمان
والله لا يرضى بكثرة فعلنا   لكن بأحسنه مع الإيمان

﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[3]. وحسب نفسك إخلاص يزكيها.

ومن الزاد:

متابعة رسول الهدى ﷺ. فقد ثبت عنه قوله: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[4]. ويقول الله جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[5].

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.
(٢) سورة الزمر: الآيتان ٢، ٣.
(٣) سورة الملك: الآية ٢.
(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.
(٥) سورة الحشر: الآية ٧.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فيا أيها المسافر: من عمدة عدتك اتباعه.

فتدور مع قول الرسول وفعله نفياً وإثباتاً بلا روغان

ورحم الله الحكمي يوم قال:

شرط قبول السعي أن يجتمعا فيه إصابة وإخلاص معا
لله رب العرش لا سواه موافق الشرع الذي ارتضاه
وكل ما خالف للوحيين فإنه رد بغير مين

جماع الزاد:

وجماع الزاد هذا كله: تقوى الله جل وعلا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[2] إنها العز والنسب، والسبب والفخر والكرم.

ألا إنما التقوى هي العز والكرم فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

ف ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[3]. فالزاد إذن: إيمانٌ وعملٌ صالح في إخلاص، ومتابعة في تقوى.

فإذا هي اجتمعت لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

ولا بد للمسافر من رفقة وصحبة، فالراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب - كما ثبت عنه ﷺ[4] -

---

(١) سورة النور: الآية ٦٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٧.
(٣) سورة المسد: الآية ١.
(٤) أخرجه أبو داود بسند حسن (٢٧٠٦).

والمسافر مهما تكن مواهبه، ومهما يكن عطاؤه، ومهما تكن قدراته: فإنه يبقى محدود الطاقة والقدرة ما لم يكن له أعوان يشدون أزره، ويقوون أمره، يذكرونه حين ينسى، يعلمونه حين يجهل، فالمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بنفسه، قوي بإخوانه.

وما المرء إلا بإخوانه ... كما تقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ... ولا خير في الساعد الأجذم

موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الملقب بالقوي الأمين في كتاب الله، يوم كلّفه الله بالرسالة احتاج إلى المعين والوزير فقال ـ كما أخبر الله في كتابه ـ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾[1] ماذا قال الله؟ قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[2]. وفي القصص يقول الله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3].

فالصاحب ضرورة ولا بد، لكن له صفات تحدده وتميزه، لعلنا نقف عندها باختصار، منها:

* أن يكون مؤمناً:

«فلا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» كما ثبت عنه ﷺ[4]. ولا يكفي أن يكون مؤمناً، فلا بد:

---

(١) سورة طه: الآيات ٢٩ ـ ٣٥.

(٢) سورة طه: الآية ٣٦.

(٣) سورة القصص: الآية ٣٥.

(٤) أخرجه أبو داود بسند حسن (٤٨٣٢).

*** أن يكون عاقلاً:**

لأن الأحمق قد يثور عليك فيغضب، فيجني عليك وعلى نفسه، ويقعد بك عن الهدف المرسوم الذي رسمته لنفسك. وصدق ونصح من قال:

احذر الأحمق أن تصحبه إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقعته من جانب زعزعته الريح يوماً فانخرق
أو كصدع في زجاج فاحش هل ترى صدع زجاج يرتتق

كلا.

*** أن يكون عدلاً غير فاسق:**

أقول ذلك لئلا يجرك إلى فسقه. ودّ صاحب الفسق والمعصية لو فسق الناس جميعاً؛ لئلا يكون نشازاً بينهم.

*** وأن يكون غير مبتدع:**

لئلا يلقي عليك الشبه فيتشربها قلبك، والقلوب ضعيفة، والشُّبَهُ خَطَّافة، كما يقول العلماء.

*** أن يكون حسن الخلق غير حريص على الدنيا:**

وصدق من قال: شبيه الشيء منجذب إليه. وخير الكلام كلام الله يوم قال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[(١)].

إن لم يكن رفقتك بهذه الأوصاف: فإني أخشى ألا تبلغ وجهتك في سفرك، وأن تكون ـ أجارك الله ـ ممن يقول حين لا ينفع: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[(٢)].

---

(١) سورة النور: الآية ٣٧.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٨.

قد تفسد المرعى على أخواتها شاة تند عن القطيع وتمرق

محطات الاستراحة:

أما محطات الاستراحة: فإن المسافر بطبعه يكلّ وينصب، ويتعب ويملّ، وراحته وأمنه وسكينته: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾(١) من لا يعرفها فحاله كقول القائل:

إن مات مات بلا فقدٍ ولا أسف أو عاش عاش بلا خَلْق ولا خُلُق

هدف المسافر ووجهته:

أما هدف المسافر ووجهته: فللمسافر وجهة، ومسافر لا يحدد وجهته كالثور يدور في الساقية، ويدور ويدور ثم ينتهي من حيث بدأ. أو كالسفينة التي تسير في البحر بلا مقصد، تتلاعب بها الأمواج، وتقذف بها الأثباج، ثم تهلك هي وأصحابها. فما وجهتنا ـ عباد الله ـ؟ إنها ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله وتعلقا

حفت الجنة بالمكاره، فمن أرادها حقاً اقتحم المكاره، فمن خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره، والمكارم منوطة بالمكاره، ومن تأمل نيل الدر من البحر؛ وجده بعد معاناة المكاره، ومن تأمل دوام البقاء في نعيم الجنة؛ علم أنه لا يحصل إلا بنقد هذا العمر ثمناً له، وما مقدار عمر غايته مائة سنة: منها خمس عشرة صبوة وجهل، ومنها ثلاثون بعد

---

(١) سورة النور: الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

السبعين ـ إن حصلت ـ عجز وضعف، والتوسط نوم. ونصف زمانك أكل وشرب وكسب، وللعبادات منه زمن يسير.

عمرك محدود فأدرك به بعض الأماني وانتهز واعقل

أفلا يُشْتَرى ذلك الدائم بهذا القليل؟! خاب والله، وغبن وتعس وانتكس: من باع الجنة وما فيها بشهوة ساعة، غبن فاحش، خلل وهوان، تالله ما العيش إلا عيش الجنة، حيث اليقين والرضا، والمعاشرة لمن لا يؤذي ولا يخون، مع تنوع أصناف النعيم.

والذل في دعة النفوس ولا أرى عز المعيشة دون أن يشقى لها

من جدّ وجد، ومن سهر ليس كمن رقد، والفضائل تحتاج لوثبة أسد.

(تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس. تأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون لها ثمناً، فدارت السلعة بينهم، ووقفت في يد قوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين. عرفوا عظمة المشتَرى، وقدر السلعة، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، فرأوا من الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان والتراضي، فربح البيع، لا إقالة ولا استقالة)[١].

سعوا للمعالي وهم صبية وسادوا وجادوا وهم في المهود

---

(١) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم، ص٥١٠ ـ ٥١١. عبد المنعم العزي.

إنها سلعة الله وكفى؛ سلعة الله غالية جد غالية، تحتاج إلى مثابرة، وجهد وصبر ومصابرة، وتضحية ومغالبة.

ومن هجر اللذات نال المنى ومن | أكب على اللذات عض على اليد

* * * * *

يا سلعة الرحمن لست رخيصة | بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها | في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن أين المشترى | فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب | فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن لولا أنها | حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف | وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة | ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى | رب العلا بمشيئة الرحمن
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد | راحاته يوم المعاد الثاني

* * * * *

فحي على جنات عدن فإنها | منازلنا الأولى وفيها المخيم
وحيّ على روضاتها وخيامها | وحيّ على عيش بها ليس يسأم

وسيلة تثبيت واتزان:

وعلى الطريق وسيلة تثبيت واتزان: إنها الدعوة إلى الله الكبير المتعال، على علم وبصيرة، لأنك في هذا السفر ستجد دعاة على الطريق يريدون أن يجتالوك عن الطريق، فإن لم تدعهم إلى الحق الذي تحمله دعوك إلى الباطل، إن لم تغزهم بالحق، غزوك بالباطل، إن لم تعرض عليهم الحق، عرضوا عليك الباطل في صورة الحق، فارفع على الطريق: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

لا لـدنـيـا أو هـوى أو عـصـبـة   دون خـزي أو نـفـاق أو خـطـل
إنـهـا صـدق وإخـلاص لـمـن   هـو يـجـزي وحـده عـز وجـل

فارفع على الطريق هذا الشعار، واعلم: (أن العمل الدعوي ـ كما هو معلوم ـ ميدان واسع، ومجال التحرك فيه بحر لا نهاية له، إطاره الأرض ـ مطلق الأرض ـ وميدانه الإنسان من غير حد للون ولا لجنس ولا لغة)[١]، إنها جمع وتأليف على ساحة الإسلام من غير دخل. وعمل بهذه السعة يحتاج إلى رسم خطط دقيقة، إلى دراسات متأنية، إلى نبذ للفوضوية ولو بحسن نية، فالارتجال والفوضى: خلل ووهن وجهل، واضطراب في التصور، لأن الأمة في حاجة ماسة إلى جيل مصلح منقذ، يمارس خدمة الإسلام بأرقى أساليب الإدارة والتوجيه، (جيل يتجاوز العشوائية، ويكفر بالغوغائية، يحتكم إلى حقائق الكتاب والسنة لا إلى الوهم، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض، فلا يجري وراء الخيال والأحلام والأماني، ولا يسبح في غير ماء، ولا يطير بغير جناح، جيل واقعي لا يسبح في البر، ولا يحرث في البحر، ولا يبذر في الصخر، لا ينسج خيوطاً من الخيال، ولا يبني قصوراً في الرمال)[٢]، ولا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمة الله، لكنه يعرف حدود قدراته وإمكاناته، فيأخذ بالأسباب، ويدرس مشروعية الوسائل قبل أن يقدم على الأهداف.

ولسنا بدعاً في ذلك يوم ندعو إلى ذلك؛ فإن

(١) ضوابط في العمل الإسلامي، جاسم مهلهل الياسين.
(٢) جيل النصر المنشود للقرضاوي.

رسول الله ﷺ ـ وهو الأسوة والقدوة ـ لما هاجر إلى المدينة خرج بطريقة مدروسة منظمة عجيبة، اتخذ فيها كل الأسباب متوكلاً على ربه، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

أولاً: الاتصال بالأنصار، الذي تم من خلاله بيعة العقبة الأولى.

ثانياً: بعث النبي ﷺ لمصعب بن عمير إلى الأنصار ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في دين الله.

ثالثاً: بيعة العقبة الثانية، التي هي شد للوثاق والعهد على النصرة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، بعد أن استوعب النبي ﷺ درس الطائف قبل ذلك.

رابعاً: أمر النبي ﷺ المؤمنين بالهجرة، حتى لم يبق بمكة إلا محبوس أو مفتون.

خامساً: استبقاء علي رضي الله عنه بمكة؛ لحاجته إليه في أداء الودائع عن النبي ﷺ، ولمهمة تأتي.

سادساً: اتخاذ الصاحب وهو أبو بكر، رضي الله عنه وأرضاه.

سابعاً: انتظار الإذن بالهجرة منه، صلوات الله وسلامه عليه.

ثامناً: إعداد الرواحل، ودفعها إلى هاد خرّيت من قبل أبي بكر، ومواعدته الغار بعد ثلاث ليال.

تاسعاً: ذهابه ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت غير معهود منه.

وطلبه من أبي بكر إخراج من عنده ليخبره بإذن الخروج، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: (إنما هم أهلك يا رسول الله، فأخبره ﷺ بأنه قد أذن له في الهجرة).

عاشراً: تكليف علي رضي الله عنه بالمبيت في سريره ﷺ يوم أحاط به المشركون ليقتلوه؛ تعمية عليهم.

حادي عشر: اتجاهه إلى الجنوب المعاكس لطريق المدينة، وذلك لتضليل المشركين، مع مكوثه في الغار ثلاثاً.

ثاني عشر: تكليف صاحبه أبي بكر، أسماء ابنته ذات النطاقين رضي الله عنها، بنقل الزاد إلى الغار للنبي ﷺ ولأبيها.

ثالث عشر: تكليف أخيها عبد الله، بنقل المعلومات إلى النبي ﷺ في الغار، أولاً بأول.

رابع عشر: تكليف عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه، بالمرور بغنمه مساء على الغار، ليسقي النبي ﷺ من لبن الغنم، وليطمس آثار الأقدام التي تتردد إلى الغار، حتى لا يكتشف المشركون بواسطة القافة من يتردد إلى الغار.

إن الهجرة أشبه بعملية احتشاد، ومرحلة استنفار، وقاعدة حماية، أخذ فيها النبي ﷺ بكل الأسباب متوكلاً على ربه، قبل أن يعلن النفير، وتدق ساعة الصفر ـ كما يقال ـ ولا غرو فهو القائل ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[1]. كل هذا تعليم منه ﷺ للانضباط في جميع شؤون الحياة، من سفر وإقامة، مع نبذ للفوضوية والارتجال والتخبط، ولو حسنت معها النية. والله عز وجل يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2].

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٠٨).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

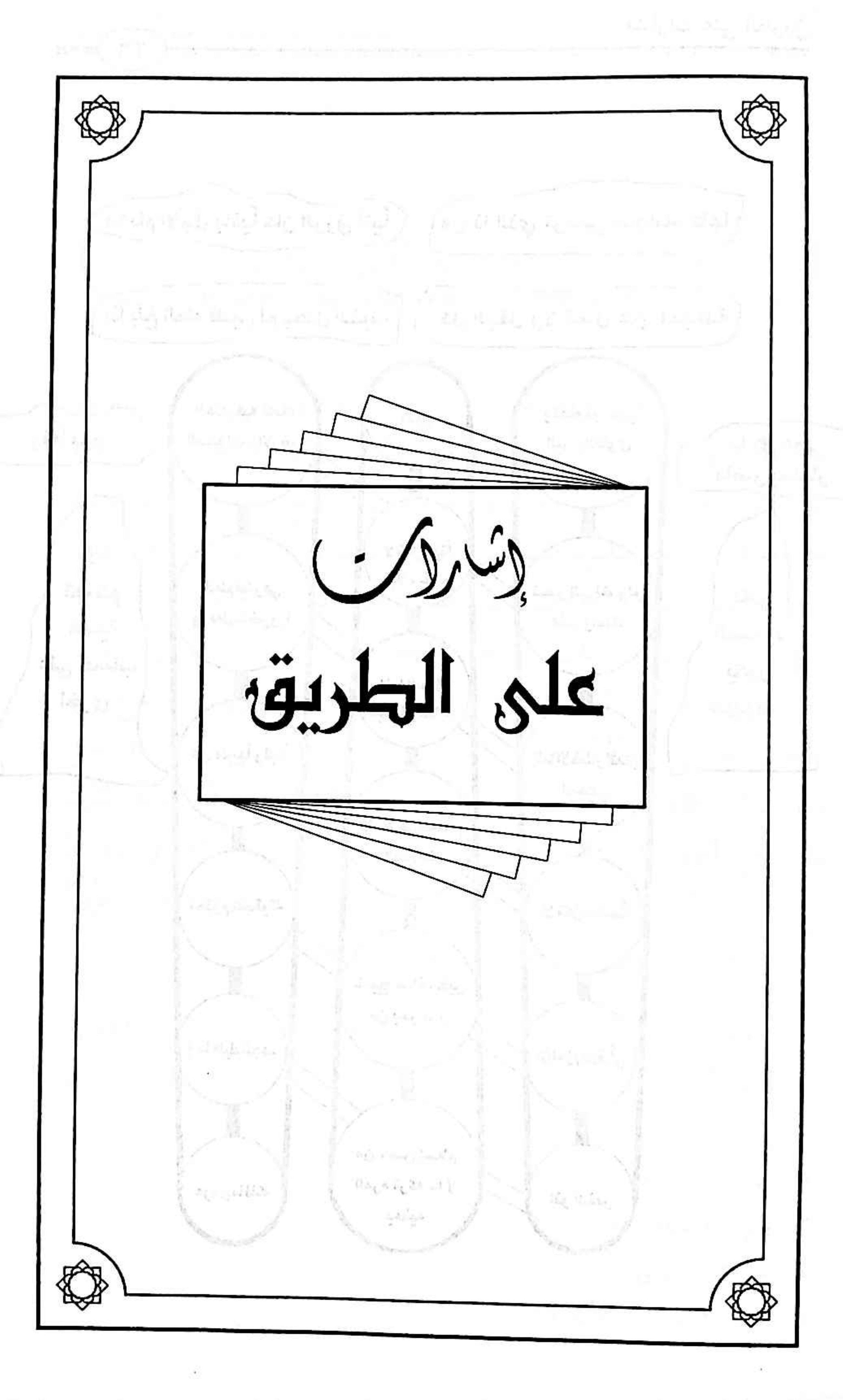
بـهـداهُ أيـهـا الـداعـي اقـتـده   وابتغ الأخرى وأخلص في العمل

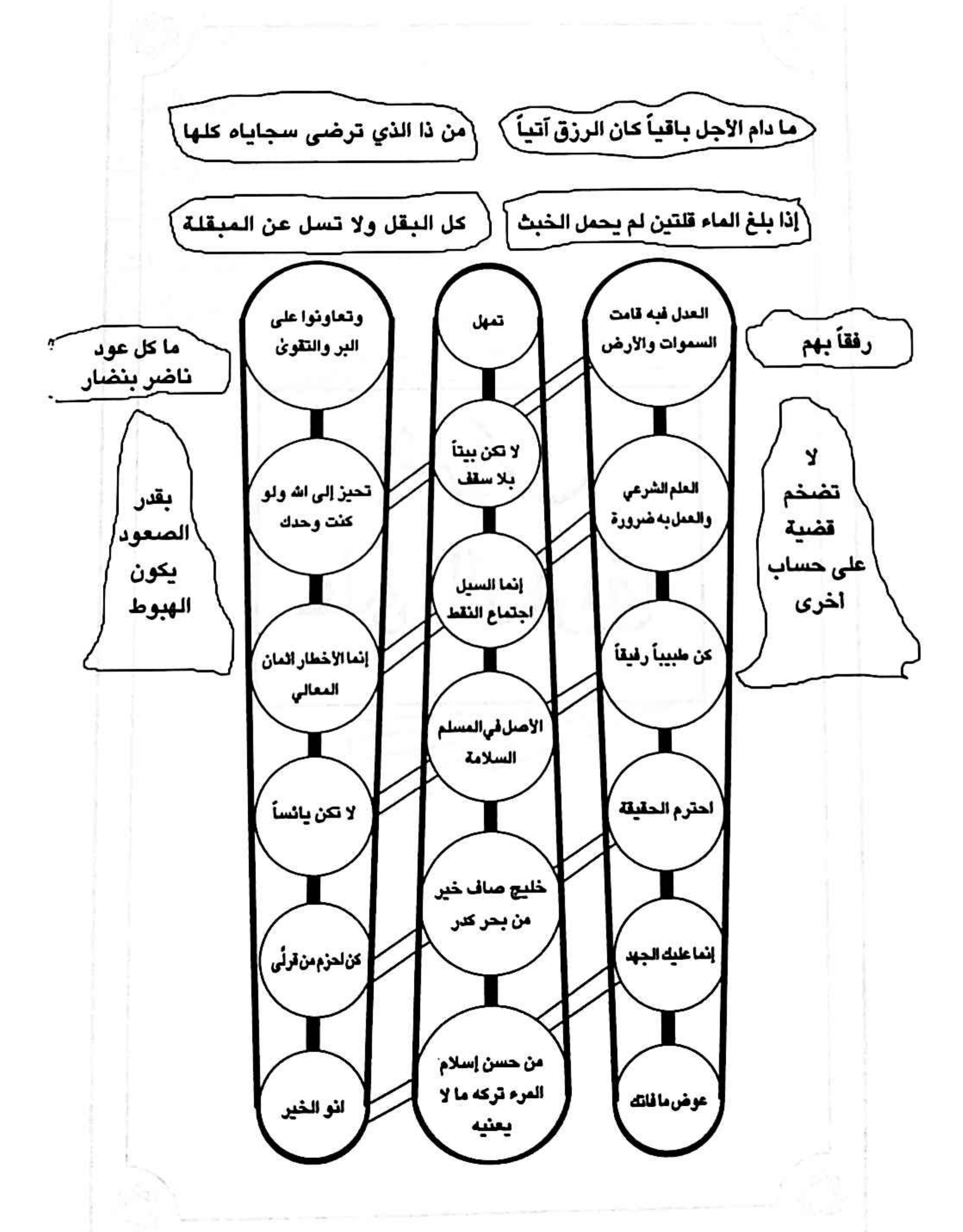
*****

فأحزم الناس من لو مات من ظمأ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

كأني بك بعد هذا كله قد حددت وجهتك، وعرفت طريقك، وأخذت عدتك وأهبتك، واخترت رفقتك، وأخذت بجميع أسباب نجاتك في سفرك، فدونك هذه الإشارات التي لا بد منها، لعلها تغريك بالمسير في الطريق، وتحذرك من العقبات التي تصد عن بلوغ الغاية في المسير.

❁ ❁ ❁


إشارات
على الطريق


ما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً
من ذا الذي ترضى سجاياه كلها
إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث
كل البقل ولا تسل عن المبقلة
رفقاً بهم
ما كل عود ناضر بنضار
لا تضخم قضية على حساب أخرى
بقدر الصعود يكون الهبوط
العدل فيه قامت السموات والأرض
العلم الشرعي والعمل به ضرورة
كن طبيباً رفيقاً
احترم الحقيقة
إنما عليك الجهد
عوض ما فاتك
تمهل
لا تكن بيتاً بلا سقف
إنما السيل اجتماع النقط
الأصل في المسلم السلامة
خليج صاف خير من بحر كدر
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه
وتعاونوا على البر والتقوى
تحيز إلى الله ولو كنت وحدك
إنما الأخطار أثمان المعالي
لا تكن يائساً
كن لحزم من قرلّى
انو الخير

الإشارة الأولى: انو الخير واعمل بمقتضى هذه النية

بالنية يتحدد السفر، وتتضح الوجهة، وعلى أساسها يخطط منهج الرحلة، فهي أساس الأمر ورأسه وعموده وأصله، بل هي روح العمل وقائده وسائقه، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، يستجلب التوفيق بها ويحصل الخذلان بعدمها، وبحسب النية تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة، وكل المناهل غير الصدق آسنة. (وسنة الله: أن من نوى الخير وعمل بمقتضى تلك النية؛ أن يوفق ويسدد ويؤيد، ويبلغ من الخير ما يريد)[١]، وفوق ما يريد بإذن ربه. يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾[٣] ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[٤].

ومن نوى الشر وعمل بمقتضى تلك النية، حرم التوفيق، وحالفه الخذلان والهوان، وإن بدا غير ذلك فإنما هو سراب

---

(١) آفات على الطريق، محمد نوح.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢٠.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٩.

أو أحلام، لا تلبث أن تنقشع فيظهر المستور، يقول الله جل وعلا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾(١). ويقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ..﴾(٢) ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٣). فانو الخير واعمل بمقتضى تلك النية، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير، «وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(٤).

والأعمال والطاعات والشكران ... القصد وجه الله بالأقوال
ويصير حقاً عابد الرحمن ... وبذاك ينجو العبد من إشراكه

❁ ❁ ❁

(١) سورة الإسراء: الآية ١٨.
(٢) سورة هود: الآية ١٥.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٥.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

الإشارة الثانية: خليج صاف أطيب من بحر كدر

بمعنى آخر: النوع الثمين لا الكم المهين، بمعنى ثالث: (من لا يخلص لا يتعب، فهو كالذي يحشو جراب العمل رملاً يثقله ولا ينفعه، إن من سلك الطريق بلا إخلاص كالذي يريد كسر الجوز بالعهن، أو كمن يحدو وما له بعير، يمد القوس وما لها وتر، يتجشأ من غير شبع، كالوحشي بلا جبل)[١]، لا شك أنه لهدفه لن يصل، العمل صورة، والإخلاص روح العمل، عمل المرائي بصلة كلها قشور، لباس المرائي نظيف لكن قلبه نجس، الإخلاص مسك، والرياء جيفة.

فاحذر كمائن نفسك اللاتي متى   خرجت عليك كسرت كسر مهان

(لما أخذ دود القز ينسج الحرير، أقبلت العنكبوت تتشبه وتنسج، ثم نسجت وقالت: يا دودة القز لي نسج ولك نسج، ولا فرق بين النسيجين، قالت دودة القز: نسجي أردية الملوك، ونسجك شبكة الذباب، وعند مس النسيجين: يتبين الفرق)[٢]. ليس التكحل في العينين كالكَحَلِ، وما كل دامٍ جبينه عابد، وفي عنق الحسناء يستحسن العقد، والنفيس نفيسٌ أينما كان.

ورب كئيب ليس تندى جفونه   ورب كثير الدمع غير كئيب

---

(١) المدهش لابن الجوزي.

(٢) المدهش لابن الجوزي.

إذا اشتبكت دموع في خدود   تبين من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوب شوقاً   وينطق بالهوى من قد تباكى

جماع هذه الإشارة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

❁ ❁ ❁

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

الإشارة الثالثة: العلم الشرعي والعمل به ضرورة للمسافر

به يعرف السهل من الطريق والوعر، به يميز إشارات الطريق وعوائقه، به يُعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد ويحمد ويمجد، به يعرف الحلال من الحرام، به توصل الأرحام، فهو أساس السفر ولا بد، بل هو أشرف مطلوب، وأفضل مرغوب، وأنفع زاد يقتنى لمسافر مكدود، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] كلا..

لا يكون العلي مثل الدني لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

من تدرع بالعلم حُفظ ومنع، وحاز قصب السبق، وارتفع وبرع. (ولما كان المجاهد لا ينكأ عدواً إلا بسلاح وعدة، فكذلك المتعلم والمعلم والعالم: لا يصنع أمة، ولا يكشف غمة، ولا يزيل ظلمة، إلا بعلم وعمل، من أثر أو سنة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لباناً له قدْ درّ من ثدي وحيه
فذاك لقيط ما له نسبة الولا ولا يتعدى طور أبناء جنسه)[3]

العلم وسيلة، والعمل ثمرة، العلم أساس البناء، والعمل

---

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٣) حلية العالم المعلم، سليم الهلالي، ص٨.

ثمرة الغراس، والبناء من غير أس لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يجنى، فاعلم أخي ولا تنس.

فما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

العلم أبلغ من القول، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[١] والناس أبناء ما يحسنون، وفعل رجل في ألف رجل، أبلغ من قول ألف رجل في رجل، (ومهما كان العالم وطالب العلم والداعية: فصيحاً بليغاً مؤثراً بارعاً، فإن كلامه وعلمه لا يتجاوز الآذان ما لم يعمل به، حتى إذا عمل به دبت فيه الحياة؛ دبت بكل كلمة ينطق بها، واتجهت كل جملة كأنها قذيفة ترهف آذان الغافلين، وتوقظ ضمائر المتغافلين، وتصبح دروسه وخطبه ومواعظه، برنامجاً عملياً يتقبله الناس راضين به عاملين مذعنين)[٢] لا يغني العلم شيئاً لوحده، لأن العلم لا يعمل وحده، إنما هو بمن يحمله ويعلمه.

يقول سيد قطب رحمه الله: (إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً، إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة)[٣].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.
(٢) استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل.
(٣) في ظلال القرآن.

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل

والذين يعلمون ثم لا يعملون، أو يعملون بخلاف ما يقولون ويعلمون، بئس ما يصنعون، إنما هم أوعية للعلم، يسيرون ثم لا ينفعون؛ بل قد يضرون، جلسوا على باب الجنة - كما يقول ابن القيم رحمه الله -: (يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعون إلى النار بأفعالهم، كلما قالت أقوالهم: هلموا اسمعوا، قالت أفعالهم: افرنقعوا لا تسمعوا، لو كان حقاً ما يدعون إليه كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة هداة مرشدون أدلاء، لكنهم في الحقيقة قطاع طرق)[1]. أذلاء وما هم بأجلاء، بئس ما يصنعون. ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾[2] ما يغني الأعمى معه نور الشمس لا يبصرها، وما يغني عن العالم كثرة العلم لا يعمل به، إنما هو كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه، عليه بوره ولغيره نوره، يحق عليه قول القائل:

فأسعدت الكثير وأنت تشقى ... وأضحكت الأنام وأنت تبكي

خير من القول فاعله، وخير من الصواب قائله:

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب السبيل وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ... والماء فوق ظهورها محمول

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ قول الله في سورة النساء، عملوا بمقتضى ما علموا ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا

---

(١) الفوائد لابن القيم.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٥.

﴿لَأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾[1] كم وكم من قدوات ظاهراً لم تعمل بمقتضى ما علمت، فسقطت وتكشفت على الطريق فيما بين غمضة عين وانتباهتها، لعل ابن عيينة رحمه الله كان يعنيها بخطابه يوم يقول: لا تكونوا كالمنخل يخرج الدقيق الطيب ويمسك النخالة، تخرجون الحكمة من أفواهكم، ويبقى الغل في صدوركم. إن من يخوض النهر لا بد أن يصيب ثوبه وإن اجتهد ألا يصيبه، فويحكم ثم ويحكم ثم ويحكم.

أيها العالم إياك الزلل	واحذر الهفوة فالخطب جلل
هفوة العالم مستعظمة	إن هفا أصبح في الناس مثل
إن تكن عندك مستحقرة	فهي عند الله والناس جبل
أنت ملح الأرض ما يصلحه	إن بدا فيه فساد وخلل

أيها المسافر على علم: (لا تشغل نفسك بأدنى العلوم دون أعلاها وأسماها، وأنت قادر عليه، فإني لأربأ بك أن تكون كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر، أو كغارس الشعراء حيث يزكو النخل والتين والزيتون)[2]، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ثم أصخ سمعك للشوكاني رحمه الله وهو يخاطبك فيقول: (استكثر من العلم الشرعي زاداً لك ما شئت، وتبحر في الدقائق مخلصاً ما استطعت، وأجب من عذلك أو خالفك بقول من صدقك.

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٦٧، ٦٨.

(٢) الأخلاق والسير لابن حزم.

أتانا أن سهلاً ذم جهلا   علوماً ليس يدركهن سهل
علوماً لو دراها ما قلاها   ولكن الرضا بالجهل سهل)[(١)]

أما وقد علمت وعملت؛ فإن من مقتضى العلم أن تدعو غيرك إلى العلم الذي عرفته، بالحجة والبرهان على بصيرة، وهدفك إخراج من تدعوه ونفسك: من الظلمات إلى النور، من الانحراف إلى الاستقامة، التي تنال رضا الله بها في الدنيا والآخرة.

هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يفسر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

فيقول: (فواجب على الأمة أن يُبلِّغوا ما أنزل إليه، وينذروا كما أنذر، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.. والجن لما سمعوا القرآن: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ اهـ[(٢)].

وهذا تلميذه الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله يقول: (وتبليغ سنته ﷺ إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه) اهـ[(٣)].

وليست هذه المنزلة العليا في الدنيا إلا منزلة الدعوة

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني.
(٢) انظر مجموع الفتاوى: ١٦/٣٢٧.
(٣) التفسير القيم: ٤٣١.

إلى الله، ووراثة وظائف النبوة، التي ليس أشرف منها إلا منزلة النبوة نفسها. وهذا الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى يناديك: (ألست تبغي القرب منه؟ فاشتغل بدلالة عباده عليه، فهي حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم) و(هل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر) اهـ.

وها هو رحمه الله يقارن بين الشجعان الذين يخالطون الناس لدعوتهم، ويصبرون على أذيتهم، وبين المتخاذلين المعتزلين القاعدين عن الدعوة إلى الله تعالى، فيقول: (الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، من جماعة واتباع جنازة وعيادة مريض.

إلا أنها حالة الجبناء. فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلّمون. وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام)[١].

إن الحاجة إلى الدعوة ماسة؛ لأن العقول لا تستطيع وحدها إدراك مصالحها، التي تكفل لها في الدنيا الآخرة؛ لأنها لا تُهدى وحدها إلى تمييز الخير من الشر، فكثيراً ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع فيه، وكثيراً ما يظهر لها الخير في صورة الشر فتعرض عنه، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢]. فمهما توسعت أفهام الإنسان ومداركه ومعارفه؛

(١) علو الهمة للمقدم: ٢٦٥/٢٦٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

فإنه يبقى قاصراً محدوداً، ومن ثَم كان لا بد من الدعوة على أيدي الرسل وأتباعهم.

فإذا اتضح الهدف سرت في هذه الحياة على هدى، وعندها بادر بعمل دؤوب، في طموح وجدية وأخذ بقوة، تستشعر قول الله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾(١) وقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾(٢).

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً   ألا فاجعلنه ماضياً بالجوازم

في ثبات ومسارعة ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾(٣) ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(٤) في تدرج وأناة واعتدال ومداومة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾(٥) في شجاعة وعدم تهيب وتردد:

ومن يتهيب صعود الجبال   يعش أبد الدهر بين الحفر

في بصيرة وفرقان بإتقان ﴿ٱدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾(٦) في استشارة حازم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ في عزيمة وتصميم معاً، وتوكل دون تسفيه رأي، أو إنقاص قدر ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾(٧).

---

(١) سورة مريم: الآية ١٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦٣.
(٣) سورة طه: الآية ٤٢.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.
(٥) سورة الشرح: الآية ٧.
(٦) سورة يوسف: الآية ١٠٨.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا
إذا كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً ... فإن فساد العزم أن يتقيدا

إذا هممت فبادر، وإذا عزمت فثابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضي بالصف الآخر.

ما كل من طلب المعالي نافذا ... فيها ولا كل الرجال فحولا

وعلى الطريق نضع لك حاديين مرغبين حافزين:

أحدهما: قول الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[(١)].

وثانيهما: قول رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».

إن هدى الرحمن شخصاً واحداً ... بك خير لك من بحر درر
وهو خير لك عند الله من ... ما بدا للشمس أو نور القمر

«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم». متفق عليه.

فإن لم ينفع الحاديان، فعلى الطريق وعيدان محذران، لها أن تثير في نفسك الشعور بخطر الفتور، والتهاون والكتمان.

أحدهما: ما أخرجه البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً. ثم تلا: ﴿إِنَّ

(١) سورة فصلت: الآية ٣٣.

﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾[1]. وتلا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[2].

وثانيهما: ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من كتم علماً ينتفع به، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار». ورواه أبو داود في كتاب العلم والترمذي بلفظ: «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فهل يجوز سكوت أو يستساغ النمير
الخطب خطب عظيم والأمر أمر خطير

فإن لم يحرك فيك الوعد ولا الوعيد، ولا الترغيب ولا الترهيب، إذ تبلد الإحساس فلا مساس، فقف على أخبار أهل الأهداف، علّك أن تتشبه بهم، فيثور فيك الحماس على أساس.

(في مؤتة خرج جيش رسول الله ﷺ، وعليه زيد وجعفر وابن رواحة، رضي الله عن الجميع، هدفهم: «إن هي إلا إحدى الحسنيين، إما النصر أو الشهادة في سبيل الله». فلما ودعهم المسلمون قالوا: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقام عبد الله بن رواحة وقال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٠.

أو طعنة بيدي حران مجهزة   بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي   يا أرشد الله من غاز وقد رشدا)

ولما رأى المسلمون جموع الروم ـ الجموع الكبيرة ـ نظروا في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فقام ابن رواحة فقال: والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، وما نقاتل الناس بعدد ولا عدة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة.

تلذ له المروءة وهي تؤذي   ومن يعشق يلذ له الغرام

فقاتل القوم وعليهم زيد، فلم يزل يقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر صريعاً رضي الله عنه وأرضاه. أخذ الراية جعفر فقاتل بها، حتى إذا أرهقه القتال، اقتحم عن فرسه فعقرها؛ لئلا ينتفع بها العدو، ثم قاتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذا لاقيتها ضرابها

فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره، فقطعت، فاحتضن الراية حتى قتل كالأسد. رحمة الله على ذاك الجسد. ثم أخذها ابن رواحة كالليث، ونالته الجراح ـ وأي جراح ـ فحاله:

هل أنت إلا إصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت
يا نفس إلا تقتلي تموتي   هذا حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت   إن تفعلي فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد شقيت

(ثم قاتل ثابتاً رضي الله عنه وأرضاه حتى قتل، فأخذ الراية سيف الله خالد، ففتح الله على يديه)[١].

أخرجوا الدنيا من قلوبهم، وقطعوا أسباب التعلق بها عن أنفسهم، فكان الاقتحام، وكانت الشهادة، وكان الفوز بالجنة، وهكذا أمر العاقل اللبيب، لا يبيع الياقوت بالحصى، ولا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة، الطريق شاق وتكاليف وعوائق، فما لم يجمع همته، ويعلي إرادته، ويقوي عزيمته، ويتخفف من دنياه؛ فلن يستطيع بلوغ أهدافه وغايته.

ومن تكن العلياء همة نفسه   فكل الذي يلقاه فيها محبب

* * * *

ولم يتأخر من أراد تقدما   ولن يتقدم من أراد تأخرا

ويذكر الذهبي في سيره: (أن نور الدين الشهيد لما نزل دمياط، بقي عشرين يوماً صائماً، لا يفطر إلا على الماء. فضعف وكاد يتلف، ولما التقى العدو وخاف على الإسلام، انفرد في ناحية من الجيش، ومرغ وجهه في التراب وقال: يا رب من نور الدين؟ الدين دينك، والجند جندك، وافعل يا رب ما يليق بكرمك. فنصره الله نصراً مؤزراً)[٢].

كان ذا همة عالية، كان هدفه وهاجسه فتح بيت المقدس، وتطهيره من الصليب. قام في حلب بعمل منبر عظيم؛ لينصبه في بيت المقدس حينما يفتحه، وكان الناس يسخرون منه يوم يمرون عليه وهو يفعل ذلك، فلم يلتفت إليهم، وحاله كحال نبي الله نوح يوم يصنع الفلك: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج٣، ص٤٥٥ - ٤٦٣.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٥٣٨.

﴿مِنۡهُۚ﴾[1]. كان يريد بذلك المنبر بث الروح، وبعث الهمم، وتبديد اليأس المخيم على القلوب، ولقد حقق الله له أمنيته، وفتح بيت المقدس، ونصب له منبره بعد وفاته، نصب على يدي تلميذه صلاح الدين، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة.

والسيف يبلغ ما لا تبلغ الكلم.

هذي العزائم لا ما تدعي القضب   هذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت   تعثرت خلفها الأشعار والخطب

* * * * *

والصارم العضب الذي فتح الورى   ما زال في يد أهله مسلولا

إن لم يحرك فيك الوقوف على سير أصحاب الهمم السامية ساكناً، إذ قد صرت جلموداً عموداً ساكناً، فانظر إلى أهل الدنيا في دنياهم، وخذ منهم حافزاً لذلك، كيف يكدحون ليلهم ونهارهم في تعاملهم مع الدرهم والدينار، أفلا حياء من الله أن يكون هؤلاء أعظم تجلداً منك، وأنت تتعامل مع الله الكبير المتعال، ثم تتقاعس.

إذا فقد الإنسان صدق انتمائه   وأضحى بلا قلب فليس بإنسان

* * * * *

أعمى أصم عن الحقيقة أبكم   بالنوم في الفرش الوثيرة تغرم
والصمت كهفك والظلام مخيم
تدعى ولكن الذي يدعى سها   أمسى على ماء التخاذل يهرم
من أنت يا هذا أما لك في الورى   عقل يفكر في الأمور فيحسم
إني لأرجو أن أراك مزمجرا   أنا مؤمن بمبادئي أنا مسلم
قد قمت أرقى في مدارج عزتي   علمي دليلي والعزيمة سلم

---

(١) سورة هود: الآية ٣٨.

ذهب الرقاد فحدثي يا همتي إن العقيدة قوة لا تهزم
لغة البطولة من خصائص أمتي عنا رواها الآخرون وترجموا
من ذلك الوقت الذي انتفضت به بطحاء مكة والحطيم وزمزم
منذ التقى جبريل فوق ربوعها بمحمد يتلوله ويعلم ﷺ
فلا تستشر غير العزيمة في العلا فليس سواها ناصح ومشير

فإن لم يحرك فيك أهل الدنيا وكدحهم في دنياهم شيئاً؛ فانظر إلى الكفار، إلى حطب جهنم، كيف يلهثون وراء أهدافهم المؤقتة، ويتفانون لها مع أنه لا عقبى لها، (ها هو مخترع الكهرباء يترك المدرسة، بعد أن وصفه معلمه بأنه ليس مؤهلاً للاستمرار في المدرسة. وتذهب أمه إلى المدرسة متألمة لمواجهة معلمه لتقول له: إنك لا تعرف معنى ما تقول، وكل المشكلة أن ابني أذكى منك)[1]. ثم أخذته وعلّمته في بيتها، حتى أعطته من علوم الدنيا وعلوم المادة؛ ما يستطيع أن يستمر به، فلم يفل عزمه مع طرده من المدرسة؛ بل تراه يثابر ويكافح ويبدأ في تجاربه (ليخترع المصباح الكهربائي، بعد تسعة آلاف تجربة)[2]، بعمل يتراوح بين ثمان عشرة ساعة وعشرين ساعة في اليوم، في جلد عجيب، ثم لم يتوقف بعدها؛ بل إن النجاح - كما قيل - يجر إلى النجاح، فينطلق بعد عشر سنوات أخرى من البحث والجهد، في تجارب بلغت خمسين ألف تجربة، بتكلفة ثلاثة ملايين دولار، ليخترع بطارية السيارات، وأجهزة الإشارة في سكك الحديد، وإضاءة الغواصات، ويسأل متى الإجازة يا أديسون؟ قال: في اليوم الذي يسبق جنازتي[3].

---

(١) الناجحون، أديسون الذي أضاء العالم، ص١٤، ١٥.
(٢) الإبداع العلمي، محاضرة لأحمد علي القرني.

هل استفاد أديسون من إضاءة المصباح واختراع البطارية؟ هل استفاد فائدة؟ نعم! استفاد شهرة واستفاد مالاً، لكنها مؤقتة تزول وتنتهي، لا تنفعه عند الله، لأنه لم يقل يوماً من الأيام: ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1] ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[2] أفلا حياء من الله، أن يكون كافر مثل هذا، أشد تجلداً لأهدافه المؤقتة الوضيعة، من مؤمن يؤمن بالله والدار الآخرة؟ خيبة وخسارة وخذلان.

أدنى الفوارس من يغير لمغنم ... فاجعل مغارك للمكارم تكرم

* * * * *

أيها المؤمنون لا تتوانوا ... فالتواني وسيلة للتباب

فإذا المصلحون في القوم ناموا ... نهضت بينهم جيوش الخراب

فإن كنت مع هذا كله لم تتحرك، إذ أنك ثمل الهمة، مقعد العزيمة، بليد الذهن، يحق عليك قول القائل:

يخبرني البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

لم يحرك فيك ما مضى ساكناً، فلا تبرر قعودك، ولا تبرر ضعفك، ولا تبرر خورك، فإن ذلك أقبح من ضعفك، وأشنع من خورك وقعودك، ولكن سل الله أن يرفع ما بك، فهو خير لك.

يجلس بعض المتخاذلين عن تبليغ دين الله ونشره، شبعان ريان، متكئاً على أريكته، حتى إذا ما طلب منه نصرة دينه ولو بكلمة، أو كُلف بأبسط مهمة لخدمة دينه، انبرى يتهرب من

---

(١) الناجحون، أديسون الذي أضاء العالم، ص١٤، ١٥.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٢.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

المسؤولية، ويورد لك الأدلة الصحيحة، على أن واقع المسلمين سيكون ضعيفاً وسيئاً في المستقبل، ولا بد من العزلة، فيوقعها على حاله، فإذا به ينبري ويقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال المرء المسلم؛ غنم يتتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر، يفر بدينه من الفتن»(١). ويقول ﷺ: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه، حتى تلقوا ربكم»(٢). وهكذا دواليك. يبرر قعوده ولا يعمل بمقتضى الحديث، الذي لا ينطبق على زمانه حقاً، ولم يفهمه في ضوء النصوص الأخرى، فأول ما يجني عليه اجتهاده. تعوّد نقض العزائم، فحيل بينه وبين الغنائم. ويجلس الآخر شبعان ريان، متكئاً على أريكته، حتى إذا ما عاتبته في التخاذل عن تبليغ دين الله، واستغراقه في اللهو والترف، انطلق كالقذيفة مردداً: «يا حنظلة ساعة وساعة»(٣) وكأنه لا يعرف من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ غير هذا.

إن لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن

إن الذين لا تغلي دماؤهم، ولا تلتهب نفوسهم، ولا تهتز مشاعرهم لخدمة هذا الدين: لا يعقد عليهم أمل، ولا يناط بهم رجاء، أموات غير أحياء. والميت لا يحس بالأوجاع، وما يشعرون أيان يبعثون. إن النائم يوقظ، والغافل يذكر، والذي لا يجدي فيه التذكير ولا التنبيه: فهو ميت، وإنما تنفع الموعظة من أقبل عليها بقلبه ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) سورة غافر: الآية ١٣.



الرابعة: إنما عليك الجهد

افعل وسعك وطاقتك، وما تستطيع الدوام عليه؛ لئلا تنقطع في الطريق، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وإذا صلحت المقاصد لم يخب القاصد.

على المرء أن يسعى إلى الخير جاهداً ... وليس عليه أن تتم المقاصد

❁ ❁ ❁

الإشارة الخامسة: وتعاونوا على البر والتقوى[١]

المؤمنون جماعة واحدة، ويد واحدة، وجسم واحد، وبنيان واحد، والجميع مسؤولون عن تبليغ دين الله، على سبيل التعاون والتآزر والتضامن، مع السعي الجاد إلى تغيير واقع الأمة، ونقلها من مجرد الإحساس، إلى الوعي بأسباب الواقع، والطريق إلى إخراجها من ذلك الواقع. التعاون من أجل تمكين منهج الله ﷻ في الأرض قاطبة: مطلب وضرورة، تجعل كل فرد يضاف إلى الآخر، ثم تستثمر كافة العقول والسواعد والدقائق، «والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٢] وكل يستفيد من الآخر، إذ عند بحر لا يجوز التيمم، والخيط الواهي إذا انضم إليه مثله، أضحى حبلاً متيناً يجر الأثقال.

ذكر صاحب (مواقف إيمانية)[٣]: أنه في حج ١٣٩٥هـ رأى آلاف الحجاج، منظراً يثير المشاعر ويستجيش المدامع، شاهدوا حاجين أحدهما أعمى قادر على المشي، والثاني مشلول بصير العين، أراد الأعمى أن يستفيد من بصر المشلول، وأراد المشلول أن يستفيد من حركة الأعمى، فاتفق الحاجان على أن يحمل الأعمى المشلول؛ فالحركة من الأعمى، والتوجيه من

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب.
(٣) نجيب العامر، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

المشلول، وقاما بتأدية المناسك على مشقة وجهد يعلمها الله فالأمر ليس هيناً وكلكم يعلم؛ عند الطواف زحام، وعند السعي زحام، وعند رمي الجمار زحام، وفي كل مكان زحام، لكن العزيمة الصادقة، والثقة بالله عظيمة، ورجاء ما عنده ينسي المتاعب والمكاره والمشقة) اهـ. أدوا فريضتهم، ضاربين أروع الأمثلة في التعاون والاستفادة من الطاقات. هذا كله في تعاون اثنين، فكيف لو تظافرت جهود أمة بطاقاتها ومواهبها، وإمكاناتها في خدمة دينها، كيف يكون الأمر لا شك أنه سيكون:

كالبحر يقذف للقريب جواهرا   جوداً ويبعث للبعيد سحائبا

إن التعاون طريق إلى البناء والنجاح، ونظرة يلقيها المرء على خلق الله تؤكد هذا الأمر. (أمة النحل أمة عجيبة، طائفة من أمة تبني البيوت، وطائفة تنظفها، وطائفة تحرسها وتحميها، وطائفة تدل على مواضع الأزهار، وطائفة تمتص الرحيق لتأتي به، وتخرج العسل اللذيذ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[١].

والنمل تبني قراها من تماسكها   والنحل يجني رحيق الزهر أعوانا)[٢]

إن يداً واحدة لا تصفق - كما قيل - حتى إذا لم يبق إلا تلك اليد، أدت ما عليها غير ملومة وحالها:

إذا عز في قومي المسعفون   فإنك يا خالقي مسعفي
فما أنا بالمستسيغ القعود   ولا أنا بالشارد المسرف

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٨.
(٢) شخصية المسلم، السيد محمد نوح، ص٦٦.

يقول السيد محمد نوح: (رغيف الخبز على صغر حجمه: لا يصل إلى الإنسان؛ إلا بعد عمل عشرات بل مئات من البشر، تعاونت على تجهيزه وإعداده وتقديمه، ومن كان في شك من ذلك فليسأل نفسه: من حرث الأرض؟ ومن بذر الحب؟ ومن سقاه بالماء؟ ومن نظف الحشائش عنه؟ ومن حرسه؟ ومن حصده؟ ومن نقله إلى الجرن؟ ومن داسه؟ ومن طحنه؟ ومن خبزه؟ ومن بالنار سواه؟ ومن إلينا حمله؟ ومن قدمه؟ ومن؟ ومن؟ ومن؟...

هناك أسئلة كثيرة. هذا الجهد في أمر رغيف خبز، فكيف بالأمر في خدمة دين الله)[1] والتمكين له، في بناء النفوس، في صنع الرجال، في كشف الظلم، وفي إنارة البصائر، إنه يحتاج إلى تظافر طاقات وقدرات، مع صبر ومصابرة وثبات، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2] فهيا إلى التلاحم، وهيا إلى التعاون، وهيا إلى التآزر.

فالنصر لم ينزل على متخاذل والرزق لم يبعث إلى متواكل

ولنترك اللوم والتوبيخ، فاللوم لا يحرك ولا يجمع، والتفتيش عن الثغرات التي يدخل منها الداء أولى. وعند كلٍّ من الهموم ما يكفيه، وليس بحاجة إلى معكر إضافي، فليحول كل منا أخاه إلى داعية معه يحمل هم الدعوة، ويتبنى أفكارها، وحاله يهتف ويقول:

---

(١) شخصية المسلم، محمد نوح.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧١.

أمتي في كل أرض	أنتم خير الأمم
فاجمعوا أشتات أنها	ركم في غمر يم
تنشروا الخير الأعم	تبلغوا العز الأشم
وتكونوا سادة الدنيا	وفرسان القمم

وما ذلك على الله بعزيز.



الإشارة السادسة: إنما السيل اجتماع النقط

بمعنى: داوم ولو على القليل، قليل دائم خير من كثير منقطع، والديمومة والاستمرار في العطاء: تجعل العمل وإن كان ضئيلاً أصيلاً؛ مستطاعاً مذللاً، يقام به في غير ما عناء، ليس المهم قدر العمل؛ بل الاستمرار في أدائه، فالقطرة الدائمة تصبح سيلاً عظيماً.

أما ترى الحبل بطول المدى　　على صليب الصخر قد أثرا

والشيء بثمرته تقدر قيمته، ويعرف ثمنه، ومن ثمرات المداومة ما يلي:

نيل محبة الله:

أولاً: نيل محبة الله، التي هي غاية منى المؤمنين، الذين هم أشد حباً لله، من أين أخذت هذا؟ من الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» يستمر ويداوم حتى يحبه الله، فإذا حصلت محبة الله فالنتيجة: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[1]. ومثل هذا: ما

---

(١) حديث قدسي، أخرجه البخاري.

رواه الشيخان: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[١].

أهيب بقومي إلى المكرمات ألا هل ملبّ ألا هل مجيب

ترويض النفس:

ثانياً: ترويض النفس على مكابدة الهوى، حتى تعتاد الخير، (فالنفس من طبعها حب التفلت والانطلاق، ولكنها إذا روضت ذلت، واستجابت إلى ما تكره، فتمزق حجب البطالة، وتقفز على أسوار المكاره، وتستمر على ما روضت عليه، وتداوم دون كلل ولا ملل، حتى وإن استغرقت هذه المداومة العمر كله. يقول أحد السلف: عالجت لساني عشرين سنة قبل أن يستقيم لي، ويقول: عالجت الصمت عما لا يعنيني عشرين سنة قبل أن أقدر منه على ما أريد. وجاء عن التابعي الجليل ابن المنكدر رحمه الله: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت لي.

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى من الناس إلا حازم الرأي كامله

* * * * *

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقت وإلا تسلت)[٢]

الأمن من الحسرة عند المرض:

ثالثاً: الأمن من الحسرة عند المرض أو العجز أو الفتنة،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) منهج التابعين في تزكية النفوس للبلالي.

فالمداوم حين يحال بينه وبين العمل؛ يجري له ما كان يعمله، يستشعر هذا مما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب له ما كان يعمله صحيحاً مقيماً»(١) فلا حسرة ولا ندم.

تربية النفس على أخذ أعلى الأمور:

رابعاً: تربية النفس على أخذ أعلى الأمور، وعدم الرضا بالدون، ثبت في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال: «أحب الأعمال إلى الله: أدومها وإن قل».

إملال الشيطان وإضعافه:

خامساً: إملال الشيطان وإضعافه، وقطع الطريق عليه. يقول الحسن رحمه الله ـ كما في (الزهد) لابن المبارك ـ: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً على طاعة الله، فبغاك وبغاك، فرآك مداوماً: ملّك ورفضك، وإن كنت مرة هكذا ومرة هكذا ـ تتقدم خطوة وتتأخر خطوتين، كما يفعل البعض ـ طمع فيك.

هذه بعض ثمرات المداومة على العمل، ومن عرف الثمرة قدّرها، فبادر إلى الشجرة لقطفها.

يقال لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله، وقال له آخر: إلى متى تكتب العلم؟ قال: لعل الكلمة التي تنفعني لم تكتب بعد. والأعمش يروي عنه وكيع أنه لم تفته تكبيرة الإحرام مع الإمام سبعين سنة، ويقول: اختلفت إليه أكثر من ستين سنة، فما رأيته يقضي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

ركعة. من منا يلقى الله، وقد أدرك التكبيرة الأولى مع الإمام أربعين يوماً، مع أن له براءتين: براءة من النفاق، وبراءة من النار. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وروى الجماعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلة أو ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده» يقول ابن عمر: فوالله ما مرت عليَّ ليلة مذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، إلا ووصيتي عندي[(١)].

إذا فعلوا فخير الناس فعلاً ... وإن قالوا فأكرمهم مقالا
ترى جداً ولست ترى عليهم ... ولوعاً بالصغائر واشتغالا

ويروى أن حمدون بن حماد بن مجاهد الكلبي رحمه الله كان يقول: كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب، ولعل الكتاب الذي أدخل به الجنة لم يكتب بعد. لعل هذا مما يعين على المداومة على العمل، كلما عملت عملاً قلت: لعل هذا لا يبلغني الجنة، فإلى آخر وإلى آخر، حتى تلقى الله على ذلك، فربك أرحم سبحانه. فجاهد نفسك وداوم على العمل، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾[(٢)].

❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) سورة الحجر: الآية ٩٩.

الإشارة السابعة: إنما الأخطار أثمان المعالي

إنما الأخطار أثمان المعالي ربما الأجسام صحت بالهزال

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١].

والعبقرية حرمان وتضحية وليس ينبغ إلا كل صبار

إن حمل الدعوة إلى الناس، وجعلهم يؤمنون بها، ويثقون ويتأثرون: عملية صعبة شاقة، تحتاج إلى صبر وثبات، وإن المضي في طريق الدعوة، ليس بأمر هين ولا طريق ميسور، ولا بد من عزم وقوة، وصبر وثبات، لا يؤتاه إلا من نذر نفسه لله، غير مبال بما سواه. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[٢].

والصبر يوجد إن باء له كسرت لكنه بسكون الباء موضوع

والله ﷻ قد وجّه نبيه ﷺ في المرحلة المكية إلى الصبر والجلد، وقوة التحمل فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[٣] وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.
(٣) سورة المزمل: الآية ١٠.

يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾[1]. الصبر تفاؤل دائم، حتى لو ضربت الجاهلية أطنابها. فلا يسوغ بحال الانسحاب من الميدان، إذ يخلو الجو للشيطان، ويكر الجراد على الحرث فيلتهمه، وقد تغير اللصوص عليه فينتهبونه، فلا بد من صبر وصمود، حتى يثبت ويثمر العود.

ولست بخالع درعي وسيفي   إلى أن يخلع الليل النهار

كل لذة منقطعة عند أول غمسة في جهنم، وكل بؤس وشقاء ينقطع عند أول غمسة في الجنة، وللباطل جولة ثم يذهب هباء، والحق له صولة، وهو أنفع وله البقاء. فإذا ادلهم الخطب، واشتد الظلام، فارتقب بزوغ الفجر، وتبين الخيط الأبيض من الأسود من الفجر، ثم اصبر وصابر، فإن العاقبة للمتقين. وخاب المبطلون، وبشر الصابرين، واصبر على ما يقولون.

لا يفزعنك هول خطب دامس   فلعل في طياته ما يسعد
لو لم يمد الليل جنح ظلامه   في الخافقين لما أضاء الفرقد

❁ ❁ ❁

(١) سورة الروم: الآية ٦٠.

الإشارة الثامنة:

تمهل

لا تعجل في دعوة أو حكم يوشك أن تصل، (إن من سنن الله في النفس: أنها لا تضحي ولا تبذل؛ إلا إذا عولجت من داخلها، وتجردت من حظوظها، وأدركت فائدة التضحية والبذل)[١]. وذلك لا يتم إلا في وقت طويل، وجهد وتكاليف، وكدح دائب، في أناة ليس يعروها ملل، فليعلم.

ومن سنن الله مع العصاة والمكذبين والمجرمين والكافرين: الإمهال ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾[٢] ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾[٣] إذا أغفل الداعية هذه السنن تعجل، وربما فشل في دعوته وكبا. إن من يريد تغيير الواقع في أقل من طرفة عين، دون النظر إلى العواقب والسنن، كمن يريد أن يزرع اليوم ويحصد غداً، بل يريد أن يغرس في الصباح ويجني الثمرة في المساء، وهذا محال، لا بد من صبر وترو على البذرة حتى تنبت، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهر، وعلى الزهرة حتى تثمر، وعلى الثمرة حتى تنضج، ثم يبادر إلى قطفها قبل أن

---

(١) آفات على الطريق، محمد نوح، ج١، ص٦٧.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٥.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٨.

تفسد، ومسافة ميل تبدأ بخطوة واحدة، ومن سار على الطريق وصل. إن شيوع المنكرات، وإحاطتها بالمؤمن من كل جانب، مع العجز ـ أحياناً ـ عن تحمل أعباء الطريق ومشاقه، مع واقع أعداء الله في الصد عن سبيل الله، مع الطاقة الضخمة التي يولدها الإيمان في النفس، قد يدفع هذا كله إلى العجلة إذا لم تضبط الأمور بضابط الشرع.

يردّ يدي عن خوفها بطش ربها ويمنع نفسي أن تخادع ديني

(إن رسول الله ﷺ وهو الأسوة، قد بعث والأصنام من حول الكعبة، تحيط بها وتعلوها، ثم لم يقبل على إزالتها إلا يوم فتح مكة في السنة الثامنة، أي بعد بعثته بواحد وعشرين عاماً، لتقديره ﷺ أنه لو قام بتحطيمها في أول يوم قبل أن تحطم في داخل النفوس؛ لأقبلوا على تشييدها وزخرفتها بصورة أعظم وأشنع، وعندها يتفاقم الأمر ويعظم الضرر، ولذا تركها ﷺ، وأقبل يعدّ الرجال، ويزكي النفوس، ويطهر القلوب، حتى إذا ما تم له ذلك: أقبل بتلك القلوب ليفتح بها مكة، ويزيل الأصنام، فكان له ما أراد ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[1]).

لكل شيء في الحياة وقته وغاية المستعجلين فوته

وقد أخبر ﷺ ـ فيما ترويه عائشة كما في صحيح البخاري ـ: أنه لولا أن قومها حديثو عهد بكفر لنقض الكعبة، وأعادها على قواعد إبراهيم. وهذا هو الفقه حقاً، أعني رفض المنكر بالقلب، ومقاطعته خوفاً من أن يؤدي إلى منكر أكبر،

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.

مع البحث عن سبل التغيير، والعزم على أنه حين تتاح الفرصة لتغييره فلن يكون هناك تباطؤ أو توان)[١].

فكن أسداً في جسمه روح ضيغم وكم أسد أرواحهن كلاب

*****

يمنع الليث حماه أن يرى فيه كلباً عادياً إن زأرا

ليعدّ الواحد منا نفسه ما دامت الظروف غير ملائمة، والفرص غير مواتية، والعواقب غير محمودة، والمقدمات قاصرة، حتى إذا ما لاءم الظرف، كان حاله كحال القائل يوم قال:

أنا أبو طلحة واسمي زيد وكل يوم في سلاحي صيد

ثم انظر وتأمل واعتبر: (ها هي شجرة الصنوبر تثمر بعد ثلاثين سنة، وشجرة الدباء (القرع) تثمر في أسبوعين. تسخر الدباء من الصنوبر وتقول: إن الطريق التي تقطعينها في ثلاثين سنة أقطعها في أسبوعين، ويقال لي: شجرة، ولك: شجرة. فتقول شجرة الصنوبر: مهلاً إلى أن تهب رياح الخريف)[٢].

وعندها يعرف المضمار ويعرف السابق والخوار

فتصبّر لتصبر، وتحلّم لتحلم، ولا تعجل فقد تكفى بغيرك، ويكتب لك بصدق نيتك ما لغيرك، ورُب عجلة أورثت ريثاً، وقد يكون مع المستعجل الزلل. ليكن حالك أحياناً: حال الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ، يوم جاءه رجل فلطم وجهه، فقال: بسم الله يا ابن أخي، ما دعاك إلى هذا؟ قال: آليت أن

---

(١) آفات على الطريق، محمد نوح، ج١، ص٦١ ـ ٦٢.

(٢) المدهش لابن الجوزي.

ألطم سيد العرب من بني تميم، قال: فبرَّ بيمينك فما أنا بسيدها، سيدُها حارثة بن قدامة.

ليست الأحلام في حال الرضى إنما الأحلام في حال الغضب

فذهب الرجل إلى حارثة فلطمه، فقام عليه واخترط السيف وقطع يمينه، ولسان حاله:

وسيفي كان في الهيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصداعا

فلما بلغ الأحنف ما حصل لهذا الأحمق، قال: أنا والله قطعتها.

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

نعم، العاقل لا يفعل أمراً إلا إذا نظر في عواقبه، وتبصر أبعاده ومراميه، لا يتعجل الخطا، ولا يستبق الأحداث، ولا يتسرع في الحكم على الأمور، بل يزن الأشياء بميزان دقيق، ويقدر المواقف، وينظر إلى ما هو أبعد من اللحظة الراهنة، والساعة الحاضرة، بنظرة ثاقبة فاحصة، وخطوة متأنية تحسب كل حساب. فكن أفضل من أن تَخدع، وأعقل من أن تُخدع، لا خب ولا الخب يخدعك.

ولترقَ شيئاً فشيئاً صاعداً درجاً من البناء رصيناً واحذر العجلا
فكم عجول كبا من ضعف رؤيته وذي أناة أصاب الرشد والأملا

❀ ❀ ❀

الإشارة التاسعة:

كن أحزم من قرلّى

القرلّى طائر مائي ذو حزم، لا يرى إلا حذراً على وجه الماء، عين في الماء طمعاً، وعين في السماء حذراً، ولذلك تقول العرب في المثل: (كن أحزم من قرلّى، إن رأى خيراً تدلّى، وإن رأى شراً تولّى)[١] . ومن الحزم: تعويد النفس على الخير، حتى تعتاده وتألفه، ومن الحزم: منع النفس هواها، وعدم الرضا بالدون، دون علاها (فإن في النفس كما يقول ابن القيم:

كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقِحة هامان، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل.

ومن أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع، ووثوب الفهد، غير أن الحازم: بالمجاهدة يذهب ذلك كله)[٢] بإذن ربه، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ

---

(١) وورد في جمهرة الأمثال للعسكري، ج١، ص٣٩٦: كن أحذر من قرلّى.

(٢) الفوائد لابن القيم، ص٨٦.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1]. ليس من الحزم بيع الوعد بالنقد، وليس من الحزم جزع من صبر ساعة، مع احتمال ذل الأبد. إن من يشتري الخسيس بالنفيس، ويبيع العظيم بالحقير؛ إنما هو سفيه، لا يعرف الحزم ولا الحزم يعرفه، عيْنُه عينُ هوى، وعين الهوى عينٌ عمياء.

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل مطلب

بعضنا أكبر همه، ومبلغ علمه: لقمةٌ ولباسٌ ومركبٌ، مطعمٌ شهي، وملبسٌ دفي، ومركبٌ وطي، قد رفع راية:

إنما العيش سماع ومدام وندام ... فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

هوان لا يعرف الحزم، وذلة لا تعرف العز، عارٌ ينكره الحر والأسد، ويألفه الحمار والوتد.

إن الهوان حمار البيت يألفه ... والحر ينكره والفيل والأسد

ولا يقيم بدار الذل يألفها ... إلا الذليلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يُشج فما يأوي له أحد

الحزم بقدر الاهتمامات والهموم، والهموم بقدر الهمم، (والجلد والحزم خير من التفلت والتبلد، والصلاة خير من النوم، والمنية خير من الدنية، ومن عزَّ بزّ.

فثب وثبة فيها المنايا أو المنى ... فكل محب للحياة ذليل)[2]

(ومن أراد المنزلة القصوى من الجنة، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة، واحدة بواحدة، ولكل سلعة

---

(١) سورة النازعات: الآية ٤١.

(٢) علو الهمة للمقدم، ص٣٠.

ثمن)[١]. (كان أبو مسلم الخولاني رحمه الله حازماً مع نفسه، قد علق سوطاً في بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي، فوالله لأزحفن بك زحفاً إلى الله، حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا فتر وكلّ وتعب: تناول سوطه وضرب رجله، ثم قال: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا، كلا والله لنزاحمنهم عليه زحاماً، حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالاً)[٢].

هم الرجال وعيب أن يقال لمن لم يكن في زيهم رجل

حالهم:

عباسُ عباسٌ إذا احتدم الوغى والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ



(١) علو الهمة للمقدم، ص٢٦٥.

(٢) علو الهمة للمقدم، ص٢١١.

الإشارة العاشرة:

عوّض ما فاتك

من الناس من يتحسر على ما مضى من تقصير، ويسرف في ذلك حتى يضيع حاضره، ويقطع عليه مستقبله، فيأتي عليه زمان، يتحسر فيه على الزمن الذي ضيعه في الحزن والتحسر.

إن تعويض ما فات لا يكون بالندم على ما فات فحسب، ولا يكون باجترار أحزان الماضي، إنما يكون بالجد والعمل، واغتنام كل فرصة قادمة ليتقدم بها خطوة. وهذا دليل الكيّس، وآية علو الهمة.

ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في الثمانين يقول:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خلقي ... ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي
وإنما اعتاض شعري غير صبغته ... والشيب في الشعر غير الشيب في الهمم

❁ ❁ ❁

فإن كنت ترجو معالي الأمور ... فأعدد لها همة أكبرا

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

تلك النفوس الغالبات على العلا ... والحق يغلبها على شهواتها

ألا فليحمد الله من ضيع وقصر على إمهاله له، وليعوّض؛ فأيام العافية غنيمة باردة، وأوقات الإمهال فائدة، فتناول وعوّض ما دامت عندك المائدة، فليست الساعات بعائدة.

فإن تك بالأمس اقترفت إساءة ... فبادر بإحسان وأنت حميد

ولا تبق فعل الصالحات إلى غد   لعل غداً يأتي وأنت فقيد

غاب أنس بن النضر ﷺ عن وقعة بدر، فأحس بألم غنيمة ضيعها، فقال: ـ كما روى البخاري ومسلم ـ يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله مشهداً آخر في قتال المشركين، ليرين الله مني ما أصنع. فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، أقبل أنس يعتذر إلى الله مما صنع أصحاب رسول الله ﷺ، ويبرأ إلى الله مما صنع المشركون، يتقدم ويكسر غمد سيفه، ويستقبله سعد بن معاذ فيقول: الجنة ورب النضر، إني لأجد ريحها من دون أُحد، يقول سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. ولما انتهت المعركة وجدوه قد قتل، ومثّل به المشركون، ووجد به بضع وثمانون ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فما عرفته إلا أخته ببنانه.

إمّا فتى نال المنى فاشتفى   أو بطل ذاق الردى فاستراح

*****

إما إلى العز أو تقضي بساحته   ذل الحياة وطعم الموت سيان

من تفكر في تفريطه أنّ، ولتعويض ما مضى حنّ:

عكرمة ﷺ يسلم عام الفتح، وشعر بما فاته من سابقة مع رسول الله ﷺ، فكان يقول: والذي نجاني يوم بدر يا رسول الله، لا أدع نفقة أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت أضعافها في سبيل الله، ولا قتالاً قاتلته في الصد عن سبيل الله، إلا قاتلت ضعفه في سبيل الله. ويبرّ بقسمه، فما خاض المسلمون معركة بعد إسلامه إلا خاضها معهم، ولا خرجوا إلا كان معهم. وفي يوم اليرموك وما يوم اليرموك؟! (أقبل عكرمة على القتال؛ إقبال الظامئ على الماء البارد، في

اليوم القائظ، لما اشتد الكرب بالمسلمين نزل عن جواده، وكسر غمد سيفه، وأوغل في صفوف الروم، فبادره خالد بن الوليد قائلاً: لا تفعل يا عكرمة، إن قتلك على المسلمين سيكون شديداً، قال: إليك عني يا خالد، لقد كان لك مع رسول الله ﷺ سابقة، أما أنا وأبي أبو جهل فقد كنا أشد الناس على رسول الله، دعني أكفّر عما سلف مني، أأقاتل رسول الله ﷺ ثم أفر اليوم من الروم؟ والله لا يكون أبداً.

لو بان عضدي ما تأسف منكبي لو مات زندي ما بكته الأنامل

ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه أربعمائة من المجاهدين في سبيل الله، فقاتلوا حتى نصر الله المسلمين نصراً مؤزراً، ولقي الله عكرمة مثخناً بجراحه)[١]، ولسان حاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[٢] فرضي الله عنه وأرضاه.

بذل النفس فداء ورضى وقضى العمر وأقصى السفرا

همة أخرجت حظ الدنيا من نفوسهم، فتاقوا إلى تعويض ما فات من ساعات في خدمة دينهم، فاقتحموا المكاره بغية المكارم، وعقدوا لله عقداً مع أنفسهم، فما نكثوا وما نقضوا. فبادر أخي قبل العوائق، واستدرك ما فات، فلعلك بالأخيار لاحق، إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

إذا استدرك الإنسان ما فات من علا فللحزم يعزى لا إلى الجهل ينسب

* * * * *

ومكلف الأشياء ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

❁ ❁ ❁

---

(١) صور من حياة الصحابة للباشا، بتصرف.

(٢) سورة طه: الآية ٨٤.

الإشارة الحادية عشرة: العدل العدل ـ فبه قامت السمٰوات والأرض

* إعطاء كل ذي حق حقه عين العدل.

* مدح من يستحق المدح في غير ما خشية الفتنة عليه عدل.

* تأنيب من يستحق التأنيب عدل.

* الاعتراف بجهود الآخرين عدل.

* الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه عدل.

* قبول النصح عدل.

* إسداء النصح عدل.

* التربية على العدل عدل.

* والله تعالى يأمر بالعدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1].

يذكر الطبري في رواية مرفوعة إلى إياس بن سلمة، عن أبيه أنه قال: مر عمر رضي الله عنه في السوق ومعه الدرة، فخفقني بها خفقة لم تصب إلا طرف ثوبي، وقال: أمط عن الطريق ـ أي لا تزحم الطريق ـ قال: فلما كان العام المقبل، لقيني عمر

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

فقال: يا سلمة أتريد الحج؟ قلت: نعم. قال: فأخذ بيدي، وانطلق بي إلى منزله، ثم أعطاني من ماله ستمائة درهم وقال: استعن بها على حجك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتكها في العام الماضي، قلت: يا أمير المؤمنين، والله ما ذكرتها. قال: والله وأنا ما نسيتها.

ذي المعالي فليعلون من تعالى   هـكـذا هـكـذا وإلا فـلا لا

من أراد العدل والإنصاف، فليضع نفسه مكان أخيه، وليفعل ما يرضاه لنفسه.

ارض للناس جميعاً مثلما ترضى لنفسك
إنما الناس جميعاً كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسك ولهم حس كحسك

شكا رجل علياً رضي الله عنه إلى عمر رضي الله عنه، فلما جلس عمر لينظر في الدعوى قال لعلي: ساو خصمك يا أبا الحسن. فتغيّر وجه عليّ رضي الله عنه. ثم قضى عمر في الدعوى، وذهب الخصم، فالتفت عمر إلى عليّ وقال: أأغضبتك يا أبا الحسن إذ سويت بينك وبين خصمك؟ قال عليّ: كلا بل لأنك لم تسو بيني وبينه يا أمير المؤمنين، لقد أكرمتني ودعوتني بكنيتي يا أبا الحسن، ولم تناد خصمي بكنيته، فذلك الذي أغضبني، فقبّل عمر رأس عليّ وقال: لا أبقاني الله بأرض ليس فيها أبو الحسن.

حكموا فكان العدل شرعة حكمهم   ما الحكم ما السلطان إن لم يعدل
سارت مبادؤهم وسارت خلفها   أفعالهم في موكب متمثل

* * * *

شادوا من التقوى أصح مواقف   وبنوا من الحسنات خير قلاع

الإشارة لا تكن بيتاً بلا سقف الثانية عشرة:

بمعنى: لا يزال لسانك رطباً على الطريق بذكر رب العالمين، فلا تكن من الغافلين، إن بيتاً بلا سقف حري أن يكون مرتعاً للغبار والقاذورات، ومأوًى للهوام والحشرات، كذلك إن بيتاً لا يذكر الله فيه لا سقف له، خراب بلقع لا داع به ولا مجيب، (ومثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه؛ مثل الحي والميت) ـ كما في صحيح مسلم رحمه الله ـ.

إن إنساناً لا يذكر الله لا سقف له، حيّ بعظم ميت:

إذا ما الحي عاش بعظم ميت   فذاك العظم حي وهو ميت

(ومثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره؛ كمثل الحي والميت) ـ كما ثبت عند البخاري رحمه الله ـ.

والناس صنفان: موتى في حياتهم   وآخرون ببطن الأرض أحياء
فأكثر ذكره في الأرض دأبا   لتذكر في السماء إذا ذكرتَا

* * * * *

فلم أر غير حكم الله حكماً   ولم أر دون ذكر الله بابا

* * * * *

خذ ما يسرك دع شيئاً تضرّ به   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

إن جمعاً لا يذكر الله فيه؛ لا سقف له، مضطرب أرق قلق:

كريشة في مهب الريح ساقطة   لا تستقر على حال من القلق

«والدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً»[١]، في الزهد لابن المبارك رحمه الله: أن أبا مسلم الخولاني رحمه الله، دخل مسجداً رأى فيه حلقة ظنهم في ذكر، فجلس إليهم فإذا هم يتحدثون في الدنيا، فقال: سبحان الله! هل تدرون يا هؤلاء ما مثلي ومثلكم؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير، فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين، فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر. فدخل فإذا هو بيت بلا سقف، جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خير وذكر، فإذا أنتم أصحاب دنيا.

كم حديث يظنه المرء نفعاً وبه لو درى يكون البلاء

إنه ليس أنفع في جلاء القلوب واطمئنانها من ذكر الله ومناجاته، وليس هناك من هو أولى بملازمة ذكر الله من الداعية إلى الله، وكلنا ذلك الرجل الذي جعل محور حياته خدمة لدين الله، فهو أحرى أن يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنب، وفي كل حين وآن. فذكر الله يرقق المشاعر، ويوقظ القلوب والضمائر، ويرهف الإحساس، ويشرح الصدور، ويسمو بالنفوس ويزكيها، ويترفع بها عن شهواتها ويملك جماحها، ويرفع الدرجات، ويكفر السيئات، ومع ذا خفيف على اللسان، ثقيل في الميزان، حبيب إلى الرحمن. فمن الخطورة العظيمة أيها الأحبة: أن نتحول إلى منظّرين مخططين، ثم لا نكون الربانيين العابدين الأوابين المفردين، الذاكرين الله كثيراً والمخبتين، فنصبح من المحرومين ـ نعوذ بالله رب العالمين ـ. المحروم من نعمة ملازمة ذكر الله محروم

---

(١) رواه الترمذي بإسناد حسن.

من الإحساس المرهف، والضمير اليقظ الحي، حياته جمود وعطالة وبطالة وانحطاط، أنى له أن يصل إلى وجهته؟ إن المسلم بصفة عامة، وطالب العلم بصفة خاصة، جدير بأن يذكّر الناس بالله، حتى إذا ما رؤي ذُكِر الله تعالى فكيف به إن كان غافلاً؟ أيكون جديراً بالتذكير؟! كلا والله، إن فاقد الشيء لا يعطيه.

هل يطلب الماء ممن يشتكي عطشاً   هل يطلب الثوب ممن جسمه عاري

* * * * *

يا بانياً بالماء حائط بيته   فوق العباب أرى البناء مهيلا

* * * * *

أرأيت قبلك عارياً   يبغي نزال الدارعين

كلا. إن بحر الحياة الدعوية ليست السباحة فيه بالخطب اليسير، فخير للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونة الغرق، ألا وهي سفينة الإيمان والاطمئنان بذكر الرحمن، كثير ممن يحسنون السباحة غرقوا في هذا البحر، وما رأينا سفينة الإيمان وذكر الرحمن تغرق فيه أبداً، وعلى الطريق: «سبق المفردون»[1]. إن القلب بذكر الرحمن بلد عامر مأمون، وحصن محكم مصون، وروضة مباركة، لا يكاد ينفد نعيمها ولا ينضب معينها، ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[2].

* الذكر مسك والغفلة رماد.

* الذكر جواد والغفلة حمار.

* فليكن لسان الحال على الطريق: ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد.

---

(١) حديث أخرجه الإمام مسلم.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٥.

* ولا أمتطي الحمار بعد الجواد.
* وإنما يتيمم من لم يجد الماء.
* ويرعى الهشيم من عدم الجميم.
* ويركب الصعب من لا ذلول له [قد قاله ابن زيدون].

أما لسان المقال:

فالعز داري وبحر العزم راحلتي والذكر أنسي ومن والاه إخواني

* * * * *

فيا قدمي لا سرت بي لمذلة ولم ترتقي إلا إلى العز سلما

الإشارة الثالثة عشرة: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه(١)

قل خيراً تغنم، أو اسكت عن سوء تسلم. إن من شأن الساعي على الطريق، أن يقبل على كل أمر ينفعه، وأن يسلك السبل المفضية إلى ما رامه وأمّله، ويجتنب كل أمر يعوقه ويقطع سيره، ويتأبى بنفسه عن كل ما من شأنه أن ينزل قدره، ويقضي على وقته وحياته ورأس ماله، تراه مترفعاً عن اللهو واللغو، قد شغل نفسه بما يفيدها في آخرتها ودنياها، في حدود ما أذن الله له به، فإذا عرض له في حياته أمر من اللغو؛ أعرض عنه وأكرم نفسه عنه، إذ زمنه عنده ثمين، فلا متسع عنده للغو ولا لهو مهين. فإليك أخي المسافر العاقل على الطريق، هذه اللفتة لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يقول فيها: (اشغل نفسك فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، فإياك ثم إياك أن تمكن الشيطان من أفكارك؛ فإنه يفسدها عليك إفساداً يصعب تداركه، ويلقي إليك الوساوس، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، إياك أن تعينه على نفسك بتمكينه من قلبك. فمثالك معه كمثال صاحب رحى تطحن فيها الحبوب، فأتاك شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونك، فإن طردته ولم تمكنه من إلقاء ما

---

(١) حديث حسن رواه الترمذي وغيره.

معه في الطاحون: فقد واصلت على طحن ما ينفعك، وإن مكنته من إلقاء ما معه في الطاحون: أفسد عليك ما في الطاحون من الحب، فخرج الطحين كله فاسداً).

فيترك ماؤكم من غير ورد   وذاك لكثرة الأخلاط فيه

فاللبيب يفكر فيما يعنيه؛ بل فوق ذلك قد علم أن كلامه من عمله، فقلّ كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه.

وإن لسان المرء ما لم تكن له   حصاة على عوراته لدليل

* * * *

لا خير في حشو الكلام   إذا اهتديت إلى عيونه
والصمت أجمل بالفتى   من منطق في غير حينه

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل، ولا آمن عليك الزور، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فرب متكلم في أمر يعنيه، قد وضعه في غير موضعه فأعنته.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا   مضر كوضع السيف في موضع الندى

* * * *

والأدب النافع حسن السمت   وفي كثير القول بعض المقت

يقول عطاء بن رباح رحمه الله: أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى في صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته ينفعه، واهاً ثم واهاً..

إن الشجاعة في القلوب كثيرة   ووجدت شجعان العقول قليلا

دخلوا على أبي دجانة رضي الله عنه وهو مريض، فكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما بال وجهك يتهلل يرحمك الله؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليماً ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

وَمَا يُلَقَّنهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[(١)].

ودخل رجل فضولي على داود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ زائراً، فقام يتفقد البيت، فقال: يا إمام، إن في سقف بيتك جذعاً مكسوراً، قال: يا ابن أخي، إن لي في البيت عشرين سنة ما تأملت سقفه، ما لك وله رحمك الله، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

فأولى لكم ثم أولى لكم   مزيد من الصحو واليقظة

هذا واقعنا؛ حديث بلا فائدة، وأسئلة بلا نهاية، وتفصيل لا يفيد متحدثاً، ولا ينفع مستمعاً، ولا يزكي نفساً، تضييع للطاقات والأعمار سدى، وتلك داهية والله، وأدهى من ذلك من لا يكتفي بتضييع وقته في اللغو واللهو حتى يشتريه بماله، فَيَضِل به ويُضِلّ، إنها الفاقرة ونسأل الله العافية. لقد خلق الله هذه النفس شبيهة بالرحى الدائرة، التي لا تقف أبداً ولا تسكن، فلا بد لها من شيء تطحنه ـ كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فإن وُضِع فيها حب طحنته، وإن وضع فيها تراب أو حصىً طحنته، ولن تبقى الرحى معطلة أبداً؛ بل لا بد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً، ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً، فإذا جاء وقت العجين والخبز، تبين له حقيقة طحنه.

وكل ما يزرع الإنسان يحصده   فأحسن الزرع يحسن حين يحتصد

ورحم الله ابن بشار، يوم قال متحدثاً بنعمة الله عليه:

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٥.

منذ ثلاثين سنة ما تكلمت بكلمة أحتاج أن أعتذر عنها. وانظر أخي لأحد السلف، يوم أراد أن يطلق زوجته لأمر ما، فقيل له: ما يسوؤك منها؟ قال: أنا لا أهتك ستر زوجتي، ثم طلقها بعد ذلك. فقيل له: لم طلقتها؟ قال: ما لي وللكلام عن امرأة أجنبية عني، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

مجالسهم مثل الرياض أنيقة   لقد طاب منها اللون والريح والطعم

كيف لو خطر ببال أحدنا، أن يسجل ما يتحدث به في مجلس واحد، إنه بلا شك سيرى كماً هائلاً من الأوراق، ولو حاسب نفسه منصفاً؛ لوجد كثيراً من الزلات والسقطات فنسأل الله الثبات، والعفو والصفح عن الزلات. إن نسيت فلا أنسى أن أنبّه: أن مما يعنيك؛ بل مما يجب عليك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله ﷻ على بصيرة، ولو كره ذلك الفساق والمجرمون وقالوا لك: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فإن المقياس ليس هواهم؛ بل شرع ربنا ومولاهم.

وما على العنبر الفواح من حرج   أن مات من شمه الزبال والجعل

دع أخي ما لا يعنيك ولو كان مباحاً، فإنه تضييع لزمانك، واستبدال للذي هو أدنى بالذي هو خير، وكم من كلمة بُني بها قصر في الجنة؛ بل هي كنز من كنوز الجنة، وكم من أخرى باعدت بينك وبين السبل المفضية إلى الجنة، رزقنا الله وإياك الجنة بمنّه.

لا يضع يومك في التيه كما قد ضاع أمسك

❀ ❀ ❀

الإشارة الرابعة عشرة:

كن طبيباً رفيقاً يضع دواءه حيث ينفع

بمعنى: لا تضع العلم عند غير أهله فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم. من الناس من يطلب العلم لشر كامن، ومكر باطن، فيستعمله في شبه دينية، وتلبيس دنيء، وحيل فقهية، فلا يعان على إمضاء مكره وإكمال شره؛ بل مهان غير مكرم يحرمه. ومنهم من هو بليد الذهن، بعيد الفطنة، فلا يحمل عليه بكثير العلم فيظلم، ولا يمنع من اليسير فيحرم، وإنما ينفع سمع الآذان، إذا قوي فهم القلوب في الأبدان، وقد صدق القائل ونصح يوم قال:

لا تـؤتيـن الـعـلـم إلا امـرءاً ... يـعـيـن بـالـلـب عـلـى درسـه

ويمنع من كثيره أيضاً: السفهاء الذين إن سكت لم يسألوك، وإن تكلمت لم يعوا عنك، وإن رأوا حسناً دفنوه، وإن رأوا سيئاً أذاعوه، وإن يعلموا الخير أخفوه، وإن علموا شراً أذاعوا، وإن لم يعلموا كذبوا، وإن حاورتهم شتموا، وعليك جهلوا.

كـحـمـار الـسـوء إن أشـبـعـتـه ... رمـح الـنـاس وإن جـاع نـهـق

*****

فإذا حملت إلى سفيه حكمة ... فلقد حملت بضاعة لا تنفق

هذا كله يحتاج إلى فراسة وممارسة، ومران واختبار، يتوسم من خلاله المتعلم حقاً من غيره، كفراسة ابن عباس رضي الله عنه يوم قال: ما سألني سائل إلا عرفت أفقيه هو أم غير فقيه. أو

كفراسة الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يوم رأى شعبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحدث قوماً، يرى أنهم غير أهل للحديث، فقال: ويحك يا شعبة، تعلق اللؤلؤ على الخنازير.

فإن عناء أن تفهم جاهلاً ... فيحسب جهلاً أنه منك أفهم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

فلا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك. إن واضع العلم عند غير أهله، كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر، فلكل تربة غرس، ولكل بناء أس.

فجرد السيف في يوم يفيد به ... فإن للسيف يوماً ثم ينصرم

عرف ذلك العلماء حقاً، حتى قال قائلهم وهو عكرمة: إن لهذا العلم ثمناً فاقدروا له قدره، قيل: وما ثمنه؟ قال: أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه. ورحم الله ابن حزم في ذلك حين قال: (نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم. كإطعامك الحلوى من به احتراق وحمى، أو كتشميمك المسك والعنبر من به صداع من احتدام الصفرا)[1].

قالوا نراك طويل الصمت قلت لهم ... ما طول صمتي من عيّ ولا خرس
أأنشر البز فيمن ليس يعرفه ... أم أنشر الدر بين العمي في الغلس

* * * * *

فمن حوى العلم ثم أودعه ... بجهله غير أهله ظلمه
وكان كالمبتني البناء إذا ... تم له ما أراده هدمه

وقد قالها الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصر مدويّة، عندما كلّمه من لا يرى فقهه فقال:

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص٣١.

أأنشر درًّا بين راعية الغنم ... وأنشر منظوماً لراعية النعم
لئن كنت قد ضيعت في شرّ بلدة ... فلست مضيعاً بينهم غرر الكلم
فإن فرج الله الكريم بلطفه ... وأدركت أهلاً للعلوم وللحكم
بثثت مفيداً واستفدت ودادهم ... وإلا فمخزون لديّ ومكتتم
ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم[1]

وقد أحسن أيضاً وحلّق يوم قال:

العلم جهل عند أهل الجهل كما الجهل جهل عند أهل العلم
ومنزلة الفقيه من السفيه ... كمنزلة السفيه من الفقيه
فهذا زاهد في قرب هذا ... وهذا فيه أزهد منه فيه[2]

فعلى الطريق أخي، ضع العلم في أهله على تفاوت، فالذكي يحتاج إلى الزيادة، والبليد يكتفي بالقليل، والسفيه يمنع ويزجر، وذو الشر يذل ويحرم، ولا يعان ويكرم، والجميع يذكر ويوعظ، (كِل على الطريق لكل سالك بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار)[3] ولكل ثوب لابس، ولكل علم قابس.

فلا تكون كمن ألقى رحالته ... على الحمار وخلى صهوة الفرس

وقفة جانبية على الطريق:

عرّض ولا تصرّح فالحال ناطقة.

أقول وستر الدجى مسبل ... كما قال حين شكا الضفدع
كلامي إن قلته ضائع ... وفي الصمت حتفي فما أصنع

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي، ج١، ص٢٩٤.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي، ج١، ص٢٩٨.

(٣) الإحياء للغزالي.

الإشارة الخامسة عشرة: كل البقل ولا تسل عن المبقلة

بمعنى: خذها من أي وعاء خرجت، الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها. فلا تحقر على الطريق أحداً أن تأخذ منه الحكمة، فقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر.

والـدر در ثـمـيـن أيـنـمـا كـانـا

ورسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة، قد أقرّ أبا هريرة رضي الله عنه على أن يأخذ ما فيه نفعه من أخبث مخلوق، ألا وهو إبليس الذي كان يسرق من التمر الموكل بحفظه أبو هريرة، ثم افتدى نفسه من أبي هريرة بتعليمه آية الكرسي، كحافظ له من الشيطان حتى يصبح، فلما أخبر أبو هريرة رسول الله ﷺ بذلك قال: «صدقك وهو كذوب»[1]، فالحكمة قد يتلقاها الفاجر وهو لا ينتفع بها، وتؤخذ عنه وينتفع بها، والكذاب قد يصدق، فاعلم وحقق.

لا تحقرن الرأي وهو موافق ... حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدُّر وهو أعز شيء يقتنى ... ما حط قيمته هوان الغائص

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.



السادسة عشرة:

احترم الحقيقة

وتجنب الإغراق في المبالغة، فهي قبيحة تشوه الحقيقة، تقرب البعيد وتبعد القريب، وتظهر غبشاً في الرؤية على الطريق. إنها سماجة واستخفاف بعقل السامع، وسخرية من وجدانه (تهويل وتزييف للواقع، شطط وتفخيم وتضخيم ضد الحقيقة؛ بل عجز عن رؤية الواقع كما هو عليه)[1] وضعف في النفس مشين.

حتى يرى سيئاً ما ليس بالسوأى ... وكي يرى حسناً ما ليس بالحسن

الإغراق في المبالغة: سلبية في حياة عامة الناس، وهي ظاهرة في سلوك المجتمع والأسرة والفرد، وقد تعالج بمثلها، داء بداء فأين الدواء؟ وهاك المثال: (جاء طفل مسرعاً نحو أمه قائلاً: لقد وجدت في الحمام فأراً يا أماه مثل الفيل، فردت عليه الأم مؤنبة له: قلت لك مليون مرة لا تبالغ. فقل لي بالله أيهما أكثر مبالغة، أليس الطفل معذوراً فيما أخبر به؟ بلى)[2] وحاله:

محضتني النصح لكن لست تعمله ... فأنت أولى بذا مني على خجل

هذا على مستوى الأسرة والعامة، وتلك والله فاقرة وقبيحة وقاصمة، ولكنها في حق طلاب العلم والأخيار: ثغرة كبيرة في جدار بنيانهم التربوي، لا تكاد تسد.

---

(١) انظر زغل الدعاة لسعيد ناصر الغامدي، ص٥٤ ـ ٥٥.

(٢) السلوك المثالي للطفل المسلم، خولة درويش.

فكلُّ كسوفٍ في الدراري شنيعة ولكنه في الشمس والبدر أشنع

إنها تظهر جلية مشينة في الحكم على الآخرين، قدحاً ومدحاً، فهذا يمدح ممدوحه حتى يوصله ذرى الجبال، فلا تزال تسمع ما يلي: فلان ابن تيمية عصره، وابن حجر زمانه، وبخاري أوانه... ليس له مثال... علامة فهامة... حتى إذا ما حصل أمر ـ أي أمر ـ تغير وتبدل، وصار الأنف ذنباً، ونصبت له المجانيق، وأرسلت الصواعق، وسلت السيوف، ورفعت المعاول، ومن قمم الجبال إلى حضيض الإهمال، فإذا هو مارد خرج من قمقمه، فإياك وإياه لا تتبع أقواله.. إنه غاو مضل، مارق معاند، خائن فاسد العقيدة، أشر على الإسلام من اليهود والنصارى، حيف وظلم، وشطط وجور، وعدم اتزان، وتدمير جنان.

يا عين سحي يا قلوب تفطري يا نفس رقي يا مروءة نادي
إن دام هذا ولم يحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

* * * * *

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

ورحم الله القائل يوم قال: والله إن الأمة لن تأخذ موضعها بين الأمم؛ حتى تضع الكلمة في موضعها.

كيف تحيا أمة قد ودعت كلمة العدل ولم تذكر

فهيا أخي.. أقبل بقلبك وقالبك، واسمع إلى صاحب (كيف تحاور) وهو يخاطبك قائلاً: (لتبتعد عن تهوين ما لا يعجبك، وتهويل ما يعجبك، فإنك إن اشتهرت بذلك، فسنضطر لتفحص عينيك، عند سماع جديد الأخبار منك)[١].

---

(١) كيف تحاور، طارق علي الحبيب، ص٣٢.

نعم! إن الحقيقة غالية عند أصحاب النفوس القويمة والعقول المستقيمة، ولو كانت في غير صالحهم، فهي على مرارتها ثمينة. أما غيرهم: فيخدع نفسه ويخدع غيره.

فلا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

* * * * *

بالملح نصلح ما نخشى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغير

* * * * *

صور العمى شتى وأقبحها إذا نظرت بغير عيونهن الهام

* * * * *

دواؤك منك ولا تشعر وداؤك فيك ولا تبصر

الإشارة السابعة عشرة: الأصل في المسلم السلامة

من المبادئ المهمة في التعامل على الطريق بين المسلمين: إحسان الظن بهم، وخلع المنظار الأسود عند النظر إلى مواقفهم وأعمالهم، فكيف بنيّاتهم، والحكم على سرائرهم التي علمها عند من لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية، الأصل في المسلم الستر والصيانة، حتى تظهر منه الخيانة، لكن من الناس من منظاره أسود، أفهام الناس عنده سقيمة، ومقاصدهم سيئة، كلما سمع من إنسان خيراً كذبه، وكلما ذكر عنده أحد بخير طعن فيه وجرحه.

هم الشوك والورد أقرانهم ... وليس لدى الشوك غير الإبر

* * * * *

فكنت كذئب السوء لما رأى دما ... بصاحبه يوماً أحال على الدم

* * * * *

يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً ... ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

مبدع؛ لكنه إبداع سلبي، مبدع في تحطيم ما بينه وبين الناس من جسور الثقة، والذي يريد هداية الناس يبني جسور الثقة بينه وبين الناس؛ ليكسب القلوب، ليزرع فيها خوف وحب علام الغيوب.

ها هو الشيخ العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: لقي من صنوف الأذى على يد الأشرف موسى ما لقي، ثم رجع الأشرف إلى الحق بعد ما تبين له، وأحب الشيخ حباً جماً، وقدمه على

غيره، وعمل بفتاواه ولما مرض الأشرف قال: يا عز، اجعلني في حل وادع لي. فقال الشيخ: أما محاللتك: فإني كل ليلة أحالل الخلق، وأبيت وليس عندي لأحد مظلمة، وأرى أن يكون أجري على الله لا على عباد الله، عملاً بقول الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١).

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما

وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

ثم أوصاه الشيخ بالصلح مع أخيه فتم له ذلك، ثم ذكّره بمنع المنكرات، وإبطال ما يمارس العمال من الموبقات، من إباحة الفروج، وإدمان الخمور وارتكاب الفجور، وقال له: إن أفضل ما تلقى الله به: أن تبطل ذلك في مملكتك. فأمر بإبطال ذلك كله، وقال للشيخ: جزاك الله خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنّه وكرمه، ولقي الله فرحمه الله. هكذا ـ أخي ـ يجب أن نكون من حسن الظن بالمسلمين، حتى نصل بدعوتنا إلى سويداء قلوب المدعوين.

فمن وجد الإحسان قيداً تقيدا.

وعلينا أن نطرح سوء الظن واتباع الهوى، فاتباع الهوى يفرق ويشتت ويمزق؛ لأن الحق واحد، والأهواء بعدد قلوب الخلق ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٢).

كدودٌ كدودِ القز ينسج دائماً ويهلك غماً وسط ما هو ناسج

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٠.

فخير لك إن أردت النجاة على الطريق، أن تسيء الظن بنفسك لا بالمسلمين؛ لأن حسن الظن بالنفس، يمنع كمال التفتيش عن عيوبها، ويلبّس عليك مثالبها، فترى المساوئ محاسناً، والعيوب كمالاً.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فلا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو أجهل الناس بنفسه.

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

فكن أخي مع الناس: كالنحل يقع على أحسن الزهور والرياحين فيجتني منها ما يفيده، ويخدم به غيره، ولا يكن همك تتبع السقطات والعثرات، والتغافل عن الحسنات.

صوّب نظرك إلى عنصر الخير في الناس، وتعامل معهم على أساسه، تَسعَدْ وتُسعِدْ.

ولا تكن كالذباب يقع على القذر وينشره، تَشق وتُشق.

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

*****

إذا رأيت الهوى في أمة حكماً فاحكم هنالك أن العقل قد ذهبا



الإشارة الثامنة عشرة:

من ذا الذي ترضى سجاياه كلها

(ما منا أحد إلا وله زلة وخطأ وسقطة، ورأي قد يكون فيه كبوة، وزلة المسلم: إما أن تعرف وتشاع وتذاع، فيستمرؤها صاحبها، وينسلخ عنه الحياء، فيصعب عليه الرجوع، وإما أن تكون زلته حبيسة في صدره، لا يعلمها إلا الله وحده، فهذا رجوعه أسرع بإذن الله وأقرب)[١]، فلا يكن أحدنا عوناً للشيطان على أخيه، وليس الذئب يأكل لحم ذئب، ولا يجوز الباب إلا مؤمن عاقل، يختار رضوان الله العلي القدير. إن العامل يتعرض لعثرات، وقد يحصل منه هفوات، ثم ينبري له من سلمه حرب، وذلوله صعب، يشيع ويذيع، لا يقر له قرار، ولا ينعم له بال، كأنما يتقلب على حسك السعدان، أو يتلوى على جمر الغضا، ينحب وينبح ويلهث، ينكأ جروحاً، ويثير أشجاناً، يرفع عقيرته لا يعجبه أحد، ولا يرتاح لبروز أحد، إرضاؤه لا يدرك، أطيش من ذباب.

لو وزنت أحلامه الخفافا   على الميزان ما وزنت ذبابا

جليد بليد:

وما على الكلب أن يعتاده السعَر
ومن العجائب أن مثل لسانه لم يبتر

---

(١) ضوابط في العمل الإسلامي جاسم مهلهل الياسين، ص٩١.

فمطالب بإعادة ومطالب بزيادة ومهلل ومصفق

*****

كالكلب إن جاع لم يمنعك بصبصة وإن ينل شبعاً ينبحك من أشر

*****

فيا عجباً من زائر وهو ثعلب

يخال سكوت الليث وهناً فيعتدي غروراً وينسى بأسه حين يغضب

فالتعامل معه كالآتي: لا يلتفت إلى ما في كلامه من طعن، ويؤخذ ما فيه من حق إن وجد، فإن الحق هو الحق، وللداعية خيره، وعلى الطاعن شره.

فما الأسد الضرغام يوماً بعاكس صريمته إن أنَّ أو بصبص الكلب

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعض الناس لا تراه إلا منتقداً، ينسى حسنات الطوائف والأجناس ويذكر مثالبهم، فهو مثل الذباب: يترك موضع البرء والسلامة، ويقع على الجرح والأذى، وهذا من رداءة النفوس وفساد المزاج، فاربأ بنفسك أن تكون كصغار الكلب، أو شر الطبل على حد قول القائل:

صغار الكلب أكثرها عواءً وشر الطبل أكثرها دويا

صغير العقل بالأعراض يلهو وذو اللب الرجيح يراه غيا

ومن نظر الأمور بعين عقل جرى في هذه الدنيا أبيا

إن الوقيعة كاسمها، شر وفساد وفرقة، وتمكين للعدو وبهتان، نهايتها: خصومة وتدابر وقطيعة وقعود، وقرار لِعين العدو، وهلاك على الطريق. وهكذا الذباب على الطعام يطير، والفراش على الشهاب يسّاقط.

كلام من كان على ذا ومنظره مما يشق على الآذان والحدق

فلا تعره اهتماماً على الطريق ولا تنتصر لنفسك.

فإذا انتصرت لها فأنت كمن بغى طفي الحريق بموقد النيران

واعجباً لمسلم! قبل أن يتعلم مسألة من مسائل الدين: يتعلم كيف يقع في إخوانه المسلمين، ثم يريد أن ينجح ويفلح، ومتى يفلح؟ متى يفلح من يطعن في أقوام؛ لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من سنين، متى يفلح من يشفي صدور قوم كافرين؛ بالوقوع في إخوانه المسلمين.

تعشى عيون في النهار فلا ترى ... وترى عيون في الظلام وترقب

ويسير ذو جهل بحكمة غيره ... ويتيه ذو العقل السديد ويسلب

فيا طالب العلم: إن الوقيعة في الناس بضاعة الجبناء، وكف اللسان عن الناس سمت العلماء، وكلٌ إلى جنسه يحن.

فليكن حنينك إلى العلماء وأخلاق العلماء، تكن كالعلماء.

وانظر وقف: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: كان ممن لا يغتاب، ولا يُسمع في مجلسه بغيبة، وكذلك العلماء.

يقول: لقتل الأولاد ونهب الأموال: أهون عندي من أخذ الحسنات من رجل كبير مثلي. وفي رحلة الحج، يسجل هذا الموقف العظيم من الرجل العظيم، فيقول:

ثم جئنا آخر النهار بعد الثالثة للقرية المسماة (آتيه)، فالتمسنا عربياً نبيت عنده، فدعانا رجل عربيٌ - والله ما سألت عن اسمه ولا اسم أبيه خوفاً من الغيبة - فأنزلنا في مكان يعوي منه الكلب، وأغلقه علينا من الخارج، فذكرتني تلك الليلة ليلة النابغة التي قال فيها:

كِليني لِهَمٍّ يا أميمة ناصب ... وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

وليلة المهلهل التي قال فيها:

أليلتنا بذي حسمٍ أنيري ... إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحوري

قد وصف طولها بقوله:

كأنَّ كواكبَ الجوزاء عُوذٌ معطَّفةٌ على رُبعٍ كسيرِ
كأنَّ الجَدي في مثناهُ ربقٌ أسيرٌ أو بمنزلةِ الأسيرِ
كواكبُها زواحِفُ لاغِباتٌ كأنَّ سماءها بِيَدي مُديرِ

إلى أن قال:

وأنقذَني بياضُ الصُّبْحِ منها وقد أُنْقِذْتُ من شيءٍ كبيرِ

وتمثلت قول امرئ القيس:

كأن الثريا علّقت في مصامها بأمراس كِتَّان إلى صم جندل

وكان صبح تلك الليلة أحب غائب إلينا.

فيا معاشر طلاب العلم: هذا ديدن العلماء الربانيين ومن تشبه تشبث.

كيف الوقوف أمام خَلَّاق الملا والعلم ظن والحديث مُرَجَّمُ

إن أي إنسان يستطيع أن يرمي غيره بأي نقيصة، لكنه لا يستطيع أن يثبت دعواه إلا إذا كان صادقاً.

وكم على الأرض أشجار مورقة وليس يرجم إلا ما به ثمر

* * * * *

كلٌّ يصيد الليث وهو مقيد ويعز صيد الضيغم المفكوك

واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، ولو أنه كلما اختلف اثنان تهاجرا وتقاطعا؛ لما بقي بين المسلمين أخوة. فليتق الله مؤمن في إخوانه، وليتسع صدره لوجهات نظرهم، فلا تذهب معه المروءة والمحبة. والمؤمن يستر وينصح، لا يهتك ولا يفضح.

أُمُّنا التقوى وقد أرضعتنا من هواها ونحن نأبى الفطاما

فاشرب من الماء القراح منعماً ... فلكم وردت الماء غير قراح

*****

وهات حديثاً كقطر الندى ... يجدد في النفس ما بددا

فيضحي لآمالنا منعشا ... ويمسي لآلامنا مرقدا

❀ ❀ ❀

وقفة جانبية أخرى على الطريق:

لا تسل لئيماً:

لا تسل لئيماً فأذل من اللئيم سائله

من كان يأمل أن يرى من ساقط نيلاً دنيا

فلقد رجى أن يرتجي من عوسج رطباً جنياً

الإشارة التاسعة عشرة:

ما كل عود ناضر بنضار

ما كل من حَسُن منظره حسن مخبره، فلا تغلب المظاهر على الحقائق على الطريق ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1] وابْلِهِ: تقله أو تحببه.

فما الحسن في وجه الفتى شرفاً له   إذا لم يكن في فعله والخلائق

إن من عباد الله على الطريق: من تشرئب إليه الأعناق ويسترعي الانتباه، لكنه خائر بائر، لا خير فيه ولا يغتر به.

لهم منظر في العين أبيض ناصع   ولكنه في القلب أسود أسفعُ

* * * * *

فمردود بهاؤهمُ عليهم   كما رُدّ النكاح بلا ولي

ومن عباد الله على الطريق: من لا تشرئب إليه الأعناق، ولا يسترعي الانتباه، لكن يجري الله على يديه الخير الكثير.

متبذل في القوم وهو مبجل   متواضع في الحي وهو مكرّم

«ثبت أنه مرّ رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ قال: رجل من أشراف الناس، حري والله إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ. ثم مر رجل آخر، فقال رسول الله ﷺ للرجل: ما رأيك في هذا؟ قال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، حري إن

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفّع، وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[(١)].

وبعض الناس ماء رباب مزن   وبعض الناس من سبخ ملاح

* * * * *

والسيف ما لم يلف فيه صيقل   من طبعه لم ينتفع بصقال

* * * * *

وليس بضائر إن صح نصل   السيف ما لقي الغمد

* * * * *

ولا ينفع الأصل من هاشم   إذا كانت النفس في هاوية

(دخل أعرابي رث الهيئة في عباءة خلقة، على معاوية رضي الله عنه وأرضاه فاقتحمته عينه، وغدا ينظر إلى عباءته الخلقة، فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لا تكلمك، إنما يكلمك من فيها)[(٢)].

ما ضر نصل السيف إخلاق غمده   إذا كان عضبا حيث أنفذته برى

فإن تكن الأيام أزرت ببزتي   فكم من حسام في غلاف مكسرا

فقرّبه وأدناه، وعلم أن في العباءة ما فيها.

عجبت لمن ثوبه لامع   ولكنما القلب كالفحمةِ

مظاهر براقة تحتها   بحار من الزيف والظلمةِ

وتكلم آخر محتقر عند عبد الملك بكلام، ذهب فيه كل مذهب، حتى خلب لب عبد الملك وأعجب به، فقال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين؛ التي توصلت بها إليك، وأهّلتني لأن أتكلم بين يديك، فأخلب لبك، أبى الله أن أسمو بجد ولا أب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) علو الهمة للمقدم، ص٧٩.

فما أنا إلا السيف يأكل جفنه   له حلية من نفسه وهو عاطل

* * * * *

وليست رغوتي من فوق مذق   ولا جمري كمين في الرماد

قال: صدقت.

فما الفخر بالعظم الرميم وإنما   فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

إن من أحوال المسلم: أن يحتفي وينتعل ويمتشط ويدع ذلك، ويلبس اللباس الجميل والحذاء الحسن، ومع هذا لا تتحكم هذه المظهرية فيه، ولا يوزن بها، ولا تأسر شخصيته، فهو يحكمها ويأسرها، خلافاً لموازين معكوسة، جعلت المظهرية هي الميزان.

قيمة المرء عندهم بين ثوب   باهر لونه وبين حذاء

ماذا لو خرج العالم حافياً بين الناس، أينقص علمه وقدره؟ ماذا لو انتعل الغبي الجاهل أحسن النعال، أيصبح فقيهاً؟ ماذا لو لبس المعتوه أحسن الثياب وأجملها، أيغدو ذا لب..؟

إذا كان في لبس الفتى شرف له   فما السيف إلا غمده والحمائل

إن الاكتفاء في المقاييس، بارتداء الملابس، والامتشاطات الساحرة والعطور المنعشة، مع عدم النظر إلى التقوى، والعلم والرأي؛ حيف ونكسة.

رب ذي منظهر جميل توارى   خلف أثوابه فؤاد خؤون

إن المظهر الحسن والترجل والتطيب: من الأمور المشروعة، ومن زينة الحياة، لكن ليست هي الأصل، وليست هي المقياس في الحكم على الناس. إن التراب مكمن الذهب،

فلا يغرنك حسن المظهر وحسن الهيئة، وجمال الهندام والبزة، فكم ممن ارتداها وهو يحمل بينها نخاعاً ضامراً، وفكراً بائراً، وقلباً حائراً، فهل يقدم مثل هذا؟ كلا.. وهل تروق دفيناً جودة الكفن، (رب أشعث أغبر، ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره) كما ثبت في صحيح مسلم رحمه الله.

لا يغرنك البها والصور ستة اعشار من تراهم بقر

ولكن أكثر الناس لا يعقلون. فالعبرة كل العبرة بصلاح القلوب والأعمال، لا بالصور والأموال، ولا بالمظاهر والأشكال. (إنما تنصر الأمة بضعيفها، بصلاته ودعائه) فلا تغرنك المظاهر وابْلِ الرجال: تحبهم أو تبغضهم، ومن ثمارهم تعرفونهم.

وعلى الفتى لطباعه سمة تلوح على جبينه

* * * * *

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصغير بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضر به الوليدة بالهراوي فلا غِيَر لديه ولا نكير

* * * * *

فإن كنت في شك من السيف فابله فإما تنفّيه وإما تعده

الإشارة العشرون: بقدر الصعود يكون الهبوط

بمعنى: احذر العجب والتعالي والغرور، فهو دليل السفه ونقص العقل ودنو النفس. لا يزال الشيطان بالإنسان، إلى أن ينظر إلى نفسه وعمله، نظرة إعجاب وغرور وإكبار، فيقول له: أنت فعلت وفعلت، حتى يلقي في روعه أنه لا مثيل له، ولا نظير له، فيعجب بنفسه ويغتر، فيهلك وهو لا يشعر، ثم يتوقف عن العمل فيشقى؛ لأن السعادة إنما تدرك بالسعي والطلب، والمعجب يرى أنه وصل، فلا حاجة للسعي، فيقضي العمر كله وهو يراوح مكانه، لا يتقدم لمكرمة، ولا يرتقي لمنزلة.

ولولا السعي لم تكن المساعي

*****

فما خير برق لاح في غير وقته وواد غدا ملآن قبل أوانه

عند ذلك يرفض الحق، ويحتقر الخلق، ويداوم تزكية النفس أمام الخلق، ويفرح بعيوب أقرانه من الخلق، ثم يستعصي على النصح، ولا يعترف بجهود الآخرين. يداوم الحديث عما ينجزه من أعمال، ويرفض الرجوع عن الخطأ، ويحاول تبرير الخطأ، ويستبد برأيه، فرأيه صواب لا خطأ فيه. لا يستشير أهل التجارب العقلاء، ولا يستنير بآراء الأكياس الفطناء، يهتم بشواذ المسائل وغريبها، ويهمل العمل بأصول المسائل، ثم يرفض الجلوس للتعلم في حلقات العلم.

ألجّ لجاجاً من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب

هو الغريق فما يخشى من البلل جذ السنام له وجذ الغارب

فحاله يا له من حال: كالصخرة الصماء الضخمة على القمة والسفح، تغادرها خيرات السماء، حتى تجتمع في الأرض المنخفضة.

* أو كالبرغوث: يحيا ما دام جائعاً، فإذا شبع مات.

* أو كراكب أراق ماءه لرؤية السراب، ثم ندم حيث لا ينفع ندم ولا حسرة.

* أو كرجل في قمة جبل، يرى الناس في السهل كالنمل، ويراه الناس في القمة كالذر، وهو لا يشعر.

مثل المعجب في إعجابه مثل الواقف في رأس الجبل
يبصر الناس صغاراً وهو في أعين الناس صغيراً لم يزل

أو هو (كالسنبلة الفارغة من الحب، بين السنابل المملوءة بالحب، تجدها رافعة رأسها، تتعالى على صديقاتها وصويحباتها، مع أنها لا تصلح إلا علفاً للحيوان)[1] والمملوءة حباً مثقلة بالخير، قد انحنت برؤوسها.

إن كريم الأصل كالغصن كلما ازداد من خيرٍ تواضع وانحنى

العجب باختصار: كلب ينبح في قلب صاحبه، والملائكة لاتدخل بيتاً فيه صورة أو كلب.

فتنة تضحك أرباب النهى من مخازيها وتبكي البشرا

والنتيجة مخزية، فنعوذ بالله من الخزي والبوار. يحرم

---

(١) الدعوة الإسلامية مفهومها، محمد خير يوسف، ص٨٤ - ٨٥.

المعجب من توفيق الله، فالخذلان موافق له ومصاحب له: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[1]. وتبعاً لذلك ينال غضب الله ومقته. ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2]. وثبت أيضاً: «من تعظم في نفسه، واختال في مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان»[3]. ثم ينهار المعجب وقت المحنة والشدة؛ لأنه لم يحفظ الله في الرخاء، فجدير بأن يخذل وقت المحنة. «تعرّف على الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»[4]، كما ثبت عنه ﷺ. ثم إن المعجب: يخلق بينه وبين مدعويه، جفوة وفجوة لا تكاد تردم، فالقلوب جبلت على بغض من يتعالى عليها، ومن ثمّ لا تقبل دعوته. والمعجب عرضة لانتقام الله العاجل والآجل: (بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جمته، يختال في مشيته؛ إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة) كما روى البخاري ومسلم رحمهما الله.

أتت النوى دون الهوى فأتى الأسى ... دون الأسى بحرارة لم تبرد

*****

خدعتهم الأحلام في سنة الكرى ... ما أكذب الأحلام والتأويلا

له أسباب وبواعث لعلّ منها ما يلي: ـ باختصار ـ

١ ـ انحراف المربي في هذا الجانب؛ إذ يلمس منه حب

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه الحاكم.

(٤) صحيح رواه الترمذي.

المحمدة، ودوام تزكية النفس بالحق أو بالباطل، فيتأثر به من تحت يده.

٢ ـ المدح من غير ضوابطه الشرعية؛ بأن يكون بالحق وغير مجاوز للحد، ومع من لا تخشى عليه الفتنة.

٣ ـ صحبة المعجبين؛ والمرء على دين خليله؛ والصاحب ساحب ـ كما قيل ـ.

٤ ـ الصدارة قبل النضج والتربية؛ فالتفقه في دين الله ضرورة قبل الصدارة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١]. وقد يكون السبب: عراقة الأصل والنسب لبعض العاملين، فتحمله على استحسان ما يعمله، مع أن النسب لا يقدم ولا يؤخر. ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾. «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان»[٢].

علاج العجب والغرور:

أولاً: العلم واليقين بأن المنة لله ﷻ فيما أعطيته من مواهب وقدرات، والله قادر على أن يسلبكها ما بين غمضة عين وانتباهتها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٤].

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.
(٢) حسن. أخرجه أبو داود (٥١١٦).
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٧.
(٤) سورة النحل: الآية ٥٣.

ثانياً: دوام حضور مجالس العلم والعلماء تلميذاً؛ فإن في ذلك تطهيراً للنفس من ذلك الداء، وتعريفاً لها بقدرها، وذلك هو الدواء.

يقول يوسف بن أحمد الشيرازي في «أربعين البلدان» له: (لما رحلت إلى شيخنا، رحلة الدنيا ومسند العصر، أبي الوقت، قدّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمت عليه، وقبّلته، وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومعوّلي بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأدرك بركة علمك، وأحظى بعلو إسنادك، فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، ولو كنت عرفتني حق معرفتي؛ لما سلمت عليَّ، ولا جلست بين يدي. ثم بكى بكاءً طويلاً، وأبكى من حضره، ثم قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا)[١].

مجالسة العلماء طيب، ولو كنت تاجراً ما اخترت غير الطيب، إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه، فاعلم وعِ.

ثالثاً: خدمة من هم دونك علماً ومرتبة وقدراً، ومجالستهم ومؤاكلتهم، وشعارك: مسكين بين ظهراني مساكين، فمن وضع نفسه دون قدره، رفعه الناس فوق قدره.

رابعاً: النظر إلى من هم فوقك: علماً ومنزلة وعملاً ورأياً وتفكيراً. إن أعجبت بعقلك: ففكر في كل فكرة سوء تحل بخاطرك، فإنك تعلم نقص عقلك حينئذٍ، وإن أعجبت

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/ ٣٧٠.

برأيك: فتفكر في سقطاتك فاحفظها، ثم انظر إلى من هو أعلى منك رأياً. إن أعجبت بعلمك: فاعلم أنه هبة من الله، وانظر إلى من هو أعلى منك علماً، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

خامساً: تأمل عيوب النفس، ثم جدّ في محاسبتها أولاً بأول، وأنت أعرف بنفسك، (كل منا يصف أواني بيته ومحتوياته، ورب البيت أدرى بما فيه، وأهل مكة أدرى بشعابها، والصيرفي أعرف بنقد الدينار)[١]، (وإن خفيت على المرء عيوبه، حتى ظن ألا عيب فيه، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه أتم الناس نقصاً، وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً ـ كما يقول ابن حزم ـ فالعاقل من ميّز عيوب نفسه، وجاهدها وسعى في قمعها، والأحمق من جهل عيوب نفسه)[٢].

وأحمق منه من يرى عيوبه خصالاً يعجب بها. من أنت؟ هل أنت إلا عبد مكلف موعود بالعذاب، إن قصر مرجو بالثواب، إن ائتمر مؤلف من أقذار، مشحون بأوضار، سائر إلى جنة إن أطاع، وإلا نار ـ أجارك الله من النار ـ.

(كيف يزهو من رجيعه | أبد الدهر ضجيعه
وهو منه وإليه | وأخوه ورضيعه
وهو يدعوه | إلى الحش بصغرٍ فيطيعه)[٣]

لو فكر الناس فيما في بطونهم | ما استشعر العجب شبان ولا شيب
هل في ابن آدم غير الرأس مكرمة | وهو ببضع من الآفات مضروب

---

(١) النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون.
(٢) الأخلاق والسير، ص١٣٩.
(٣) تفسير القرطبي ٧/ ٣٣٤، نقلاً عن مسافر في قطار الدعوة (٢٧٨).

أنف يسيل وأذن ريحها سهك　　والعين مرمصة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا　　أقصِر فإنك مأكول ومشروب

وأتم الناس أعرفهم بنفسه كما قيل.

سادساً: اجلس دائماً حيث ينتهي بك المجلس؛ فذلك أدعى لكسر نخوة النفس وعجبها، واتباع للسنة، وأنعم بها من خلة.

إذا لم يكن صدر المجالس سيدا　　فلا خير فيمن صدّرته المجالس

سابعاً: إن التعويل على رحمة الله، لا على العمل فحسب. يقول ﷺ كما في صحيح البخاري: «لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته».

ثامناً: تعويد النفس على الفرار من الشرف حتى تعتاده، فمن فر منه وهب له، ومن تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه. يقول المدائني: رأيت رجلاً من باهلة، يطوف بين الصفا والمروة على بغلة في تيه وعجب، ثم رأيته في سفر، يمشي راجلاً متعباً منهكاً، يحمل متاعه على ظهره، فقلت له: أراجل في هذا الوضع، وأنت من يطوف بالبغلة بين الصفا والمروة؟ قال: نعم ركبت حيث يمشي الناس، فكان حقاً عن الله: أن أمشي حيث يركب الناس، ومن تواضع لله رفعه.

تاسعاً: الاستعانة بالله، واللجوء إلى الله: أن يطهرك من هذه الآفة، ومن استعان بالله أعانه الله.

فسل العياذ من التكبر والهوى　　فهما لكل الشر جامعتان
وهما يصدان الفتى عن كل طـــرق الخير إذ في قلبه يلجان
والله لو جردت نفسك منهما　　لأتت إليك وفود كل تهاني

ومن استعان بالله أعانه الله.

عاشراً: المجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

حادي عشر: احذر: أنا، لي، عندي.

يقول ابن القيم: (وليحذر كل الحذر من طغيان: أنا ولي وعندي، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس وفرعون وقارون، فأنا خيرٌ منه: لإبليس، ولي ملك مصر: لفرعون، وإنما أوتيته على علم عندي: لقارون، وأحسن ما وضعت (أنا) في قول العبد: أنا العبد المذنب المخطئ المستغفر ونحوه، و(لي) في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل، و(عندي) في قوله: «اغفر لي جدي وهزلي، وخطأي، وعمدي، وكل ذلك عندي»)[2].

ثاني عشر: إذا أعجبت بمدح إخوانك؛ ففكر في ذم أعدائك إياك، فإن لم يكن لك عدو فوالله لا خير فيك، فلا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له، فليست إلا منزلة من ليس لله عنده نعمة يحسد عليها، عافانا الله وإياكم ـ كما يقول ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ[3].

ثالث عشر: التدبر والنظر في سيرة الرسول ﷺ، والصحابة ومن بعدهم، ففيهما لمن تدبر عظة وذكرى. ثبت عنه ﷺ وهو سيد ولد آدم، وخير من دب على الثرى، وهو الأسوة، أنه كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض،

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) رواه البخاري، انظر زاد المعاد ٢/ ٣٧.

(٣) الأخلاق والسير في مداواة النفوس له، ص٧٨.

ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار. ويقول: إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد. ويقف بين يديه رجل يرعد كما ترعد السعفة فيقول: هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد. يمر بالصبيان ويسلم عليهم.

قُسِم التواضع في الأنام جميعهم   فذهبت أنت فقدته بزمامه

صلوات الله وسلامه عليه. يقول أنس: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت. كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضر وقت الصلاة خرج إلى الصلاة. كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم. وإذا صافح الرجل: لم ينزع يده من يده، حتى يكون هو الذي ينزع يده. لا يأنف ﷺ أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة، وكان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم. يدعونه إلى خبز الشعير فما يردهم، كما ثبت ذلك كله عنه.

فكل فعل كريم كان فاعله   يحيي القلوب ويحيي ميت الهمم

صلوات الله وسلامه عليه:

يلين لكل ذي ضعف وعجز   وكم لان لذي جهلٍ فلانا
رسول يحمل الأطفال لطفاً   ويجعل عاتقيه لهم حصانا
ويختصر القراءة حين يبكي   صبيّ والموفق من ألانا
يلاطف أهله أكرم بزوج   يعف الأهل يغمرهم حنانا
يقاسمهم متاعبهم معيناً   ويخدمهم فكم وضع الجفانا
فكم خصف النعال وخاط ثوباً   وكم من شأنه ملأ الجفانا
زعيم القوم خادمهم فطوبى   لمن خدم الرعية أو أعانا

تشبه بالرسول تفز بدنيا ... وأخرى والشقي من استهانا
فأخلاق الرسول لنا كتاب ... وجدنا فيه أقصى مبتغانا
وعزتنا بغير الدين ذل ... وقدوتنا شمائل مصطفانا

صلوات الله وسلامه عليه:

ويأتي من بعده كوكبة من أتباعه الذين رباهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ لينهجوا نهجه ويستنوا بسنته، فإذا أنت بخير من دب على الأرض، بعد الأنبياء والمرسلين: أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، يبعث وينفذ جيش أسامة، ضارباً بكل مثبط عرض الحائط، ليخرج في وداعه ماشياً وأسامة راكب. يقول أسامة: يا خليفة رسول الله: لتركبن أو لأنزلن. فيقول: والله لا ركبت ولا نزلت، وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، فإن شئت أن تعينني بعمر بن الخطاب فافعل. ثم يقولها أخرى: لو يعلم الناس ما أنا فيه، أهالوا عليَّ التراب.

عضب العزيمة في المكارم لم يدع ... في يومه شرفاً يطالبه غدا

وروي عن الفاروق:

(أنه لقيه أحد الصحابة وهو يحمل قربة على عاتقه، فقال له: يا أمير المؤمنين، أغناك الله وأرضاك، وخوّلك وأعطاك، فما يحملك على ما أنت فيه؟ قال: إن ما تقوله حق، لكن لما جاءتني الوفود سامعة مطيعة، دخلتني نخوة، فأردت أن أكسر تلك النخوة في قلبي. ثم مال بالقربة إلى حجرة أرملة من الأنصار، فأفرغها في جرارها)[١].

---

(١) كتب نادرة، محمد خير يوسف ص٦٣.

فمن يباري أبا حفص وسيرته ومن يحاول للفاروق تشبيها

ثم ينادي عمر يوماً: الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس وكثروا قالوا: الأمر خطب عظيم. صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: (أيها الناس لقد رأيتني وأنا أرعى غنيمات لخالات لي من بني مخزوم، على قبضة من تمر، أو قبضة من زبيب، فأظل يومي وأي يوم! وأستغفر الله لي ولكم. ثم نزل من على المنبر، فقال ابن عوف رضي الله عنه: ويحك يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن قمئت نفسك، وعبتها أمام الرعية. فقال: ويحك يا ابن عوف، لقد خلوت بنفسي، فحدثتني وقالت: أنت أمير المؤمنين، من ذا أفضل منك. فأردت أن أذلها، وأعرفها قدرها)[1].

كذاك أخلاقه كانت وما عهدت بعد أبي بكرٍ اخلاق تحاكيها
لعل في أمّة الإسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحسن قال: رأيت عثمان رضي الله عنه نائماً في المسجد في ملحفة، ليس حوله أحد، وهو أمير المؤمنين.

ظهر الحيا وانهل ذاك البارق ونداك فياح ومجدك سابق

*****

وتقسم الناس الحياء مجزّءاً فذهبت أنت برأسه وسنامه

رضي الله عن عثمان، وعن صحابة رسول الله ﷺ.

ويخرج ابن عساكر عن زاذان: أن علياً رضي الله عنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال وينشد الضال، ويعين

---

(١) المتساقطون على طريق الدعوة، فتحي يكن.

الضعيف، ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن. ويرد في (صفوة الأخبار): أنه اشترى لحماً بدرهم، فحمله في ملحفة، فقال له رجل: أحمل عنك يا أمير المؤمنين. قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمله. «ما تواضع أحد الله إلا رفعه»[١].

فرع سما في سماء العز متخذاً　　أصلاً ثوى في قرار المجد مغروساً

وخالد... ما خالد؟! أعني ابن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، ما هزم في جاهلية ولا إسلام، وهو في أوج انتصاراته (يأتيه خبر عزله من قبل أمير المؤمنين عمر عن قيادة الجيش، لمصلحة رآها أمير المؤمنين، فيقول خالد: والله لو ولّى عليَّ أمير المؤمنين عمر، عبداً أسود اللون؛ لسمعت له وأطعت، ما دام يقودني بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ)[٢].

لانت مهزَّته فعزَّ وإنما　　يشتد بأس الرمح حين يلين

وقيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: لو أوصيت بدفنك بجوار عمر رضي الله عنه وأرضاه في حجرة رسول الله ﷺ، فقال: والله لأنْ ألقى الله بكل ذنب غير الشرك، أحب إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لتلك المنزلة، (اللهم إن عمر ليس أهلاً لأن ينال رحمتك، لكن رحمتك أهل أن تنال عمر)[٣].

ينسى صنائعه والله يظهرها　　إن الكريم إذا أخفيته ظهرا

ويأتيك الإمام مالك، يبرق بثوب التواضع، يرفل عزاً؛ فيقول: ما رأيت مسلماً إلا ظننت أنه خير مني.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأدب.
(٢) محمد نوح، آفات على الطريق، ٢/ ٢٠٠.
(٣) من أجل صحوة راشدة للقرضاوي، ص٣٠.

وكذا السحائب قلّما تدعو إلى ... معروفها الرواد إن لم تبرق

واسمع إلى ابن القيم، وهو يحدث عن شيخه ابن تيمية رحمه الله فيقول: (كان كثيراً ما يردد: ما لي شيء، ما مني شيء ولا فيّ شيء. أنا المكدّي وابن المكدّي، وهكذا كان أبي وجدي. ويكتب بخط يده:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي

يثنى عليه في وجهه فيقول: والله إني لإلى الآن أجدد إسلامي في كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً)[١] رحمه الله كأن القائل يعنيه حين قال:

فصعدت في درج العلا حتى إذا ... جئت النجوم صعدت فوق الفرقد

على هذا سار صحابة رسول الله ﷺ، والصالحون من بعدهم؛ لم يتسلل العجب إلى نفوسهم، ولم يدخل الغرور إلى قلوبهم، تواضعوا لله فرفعهم الله في الدنيا، وفي الآخرة يكرمهم بإذن الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[٢].

بتنا نعيش على كرام فعالهم ... هيهات ليس الحر كالمستعبد
أين الجبال من التلال أو الرُّبا ... أين القويّ من الضعيف القعدد

---

(١) تهذيب مدارج السالكين للعزي، ص٢٧٧.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

لا القوم منا لا ولا أنا منهم إن لم أفقهم في العلا والسؤدد

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

إن عد قوم في التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل همُ

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لا يستطيع جواد بُعد غايتهم ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزِمت والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

إلى من عَمِي في شمس نهاره، وعثر في ذيل اغتراره، وسقط سقوط الذباب على الشراب، وتهافت تهافت الفراش على الشهاب: إن العجب أكذب، ومعرفة النفس أصوب ـ كما قيل ـ ولا شيء والله أنفع لها؛ من الافتقار إلى باريها.

بقدر الصعود يكون الهبوط فإياك والنفخة العاتيه
وكن في مكان إذا ما وقعت تقوم ورجلاك في عافيه



الإشارة الحادية والعشرون:

لا تكن يائساً

فالمستقبل لدين الله، والعزة لأولياء الله. منا من رأى تفشي الشر والمنكر، وانتشاره واستفحاله. رأى العدو تبجح وتقوى، وتحت ظل هذه الرؤية: رأى أنه مهما عملنا، فلن نغير من الواقع شيئاً، ولن نجني سوى التعب والمشقة، فليس إذاً في السعي فائدة. فإذا بك تنظر إليه متجهم الوجه، عاقد الحاجبين، مقطب الجبين، رافعاً راية: لو أسلم حمار آل الخطاب ما أسلم عمر.

يحسب يوم الجمعة الخميسا

مردداً حين يطلب منه خدمة دينه ـ ولو بكلمة ـ: أنت تؤذن في خرابة، لا أحد حولك، تنفخ في قربة مقطوعة، وغيرها من عبارات:

تصدا بها الأفهام بعد صِقالها وتـردّ ذكـران الـعـقـول إناثـاً

هلك الناس... هلك الناس في نظره، وقد هلك، وصف النبي ﷺ هذه النفسية وصفاً دقيقاً، كما في صحيح مسلم: «إن قال الرجل: هلك الناس؛ فهو أهلكهم».

معاشر المؤمنين: مما لا شك فيه: أن حقائق اليوم هي أحلام الأمس، وأحلام اليوم هي حقائق الغد، والضعيف لا يظل ضعيفاً أبد الآبدين، والقوي لا يظل قوياً أبد الآبدين. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

ﭐلْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[١] إننا نملك إيماناً بنصر الله لنا، وثقة بتأييده لنا، ويقيناً بسنة الله في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو كره المجرمون، واطمئناناً إلى وعده الذي وعد به المؤمنين ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾[٢] إنه وعد يشحذ الهمم، ويستثير العزائم، ويملأ الصدور ثقة واطمئناناً: أن الدور لنا لا علينا، والتاريخ معنا لا علينا ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[٣] سنة الله رب العالمين.

قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[٤]. «وليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر؛ إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل»[٥] كما ثبت عنه ﷺ. فأنت أيها المؤمن (أجيرٌ عند الله كيفما أراد أن تعمل عملت، وقبضت الأجر. لكن ليس لك ولا عليك: أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، ذاك شأن صاحب الأمر، لا شأن الأجير)[٦] وحسبك أن من الأنبياء: من يأتي يوم القيامة ومعه الرجل، ومعه الرجلان والثلاثة، ويأتي من ليس معه أحد ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾[٧].

---

(١) سورة القصص: الآيتان ٥، ٦.

(٢) سورة النور: الآية ٥٥.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٧٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٥) رواه ابن حبان وصححه الألباني.

(٦) «معالم في الطريق» سيد قطب، ص١٨١.

(٧) سورة الشورى: الآية ٤٨.

(وآية الآيات في هذا الدين: أنه أشد ما يكون قوة، وأصلب ما يكون عوداً، وأعظم ما يكون رسوخاً وشموخاً؛ حين تنزل بساحته الأزمات، وتوصد عليهم المنافذ. حينئذٍ يحقق الإسلام معجزته، ينبعث الجثمان الهامد، يتدفق الدم في عروق أبنائه، ينطلق، ينتفض.

يقول فيسمعُ ويمشي فيسرعُ ويضرب في ذات الإله فيوجعُ

فإذا النائم يصحو، وإذا الغافل يفيق، وإذا الجبان يتشجع، وإذا الضعيف يتقوى، وإذا الشتيت يتجمع، وإذا بهذه القطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك، من جهود القلة؛ تكون سيلاً عارماً لا يقف دونه حاجز ولا سد)[1].

لا يزخر الوادي بغير شعاب وهل شمس تكون بلا شعاع

إن هذه الأمة تمرض لكنها لا تموت، وتغفو لكنها لا تنام، وتخبو لكنها لا تطفأ أبداً.

حين غزا التتار ديار المسلمين، ودخلوها كالريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم؛ دمروا المدن وخربوا العمران، وأسالوا الدماء وأسقطوا الخلافة، وعطلوا الصلوات وألقوا أسفار المكتبات في نهر دجلة، حتى اسودّ ماؤه من كثرة ما سال من مداد الكتب، حتى أصبحت حضارة الإسلام والبشرية؛ مهددة من هذا الغزو الوحشي، الذي لا يبقى ولا يذر، والذي يذكر بما جاء في وصف يأجوج ومأجوج، حتى أحجم بعض المعاصرين للحدث عن الكتابة فيه.

---

(١) من أجل صحوة راشدة للقرضاوي.

منهم ابن الأثير رحمه الله الذي يقول: ليت أمي لم تلدني، ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. مما رأى من هول الفاجعة التي حلت بالمسلمين. ظن اليائسون حينها أن راية الإسلام نكست، ولن ترتفع بعد ذلك اليوم أبداً، وأن أمة الفتح والنصر قد حقت عليها الهزيمة، فهيهات أن تعود إلى الميدان من جديد. ولم يمض سوى سنوات حتى تحققت معجزة الإسلام، فإذا بهؤلاء الجبابرة الغازين للإسلام يغزوهم الإسلام، فتسقط سيوفهم في صف المؤمنين، تحت تأثير العقيدة الإسلامية، فإذا بهم يدخلون بهم في دين المغلوبين، على خلاف ما هو معروف: أن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب المنصور ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[1] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3].

لا تيأسوا أن تستردّوا عزكم ... فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
وتجشموا للعز كل عظيمة ... إني رأيت العز صعب المرتقى

إن قراءة متأنية لتاريخ الصليبيين وبيت المقدس، تعطي الأمل بأن الواقع سوف يتغير، فاسمع إلى ابن كثير (في البداية والنهاية)، وغيره من أهل السير، وهم يسردون لك هذا الحدث:

(في ضحى يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة، دخل ألف ألف مقاتل بيت المقدس، وصنعوا فيه ما لا تصنعه وحوش الغاب، وارتكبوا ما لا ترتكب أكثر منه الشياطين. لبثوا فيه أسبوعاً يقتلون

---

(١) سورة الروم: الآية ٤.
(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٦.
(٣) سورة فاطر: الآية ٤٤.

المسلمين، حتى بلغ عدد القتلى أكثر من ستين ألفاً، منهم الأئمة والعلماء والمتعبدون والمجاورون. وكانوا يجبرون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البيوت؛ لأنهم يشعلون النار عليهم وهم فيها، فلا يجدون مخرجاً إلا بإلقاء أنفسهم من السطوح. جاسوا فيها خلال الديار، وتبّروا ما علوا تتبيراً، وأخذوا أطنان الذهب والفضة والدنانير. ثم وضعت الصلبان على بيت المقدس، وأدخلت فيه الخنازير، ونودي من على مآذن لطالما أذن بالتوحيد مِن عليها: أن الله ثالث ثلاثة ـ جل الله وتبارك ـ فذهب الناس على وجوههم مستغيثين إلى العراق، وتباكى المسلمون في كل مكان لهذا الحدث، وظن اليائسون ألا عودة لبيت المقدس أبداً إلى حظيرة المسلمين.

كم طوى اليأس نفوساً لو رأت ... منبتاً خصباً لكانت جوهراً

ويمضي الزمن ويعد الرجال، وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة للهجرة، أعد صلاح الدين جيشاً لاسترداد بيت المقدس، وتأديب الصليبيين على مبدأهم هم: إن القوي بكل أرض يتقى. وفي وقت الإعداد، تأتيه رسالة على لسان المسجد الأقصى، تعجل له هذا الأمر وهذه المكرمة، فإذا بالرسالة على لسان المسجد الأقصى تقول:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي أنجس

فانتخى وصاح: وا إسلاماه، وامتنع عن الضحك، وسارع في الإعداد، ولم يقارف بعدها ما يوجب الغسل.

من ذا يغير على الأسود بغابها ... أو من يعوم بمسبح التمساح

وعندها علم الصليبيون أن هذا من جنود محمد ﷺ، فتصالح ملوك النصارى، وجاؤوا بحدهم وحديدهم، وكانوا ثلاثة وستين ألفاً. فتقدم صلاح الدين إلى طبريا ففتحها بلا إله إلا الله، فصارت البحيرة إلى حوزته. استدرجهم إلى الموعد الذي يريده هو، ثم لم يصل إلى الكفار بعدها قطرة ماء، إذ صارت البحيرة في حوزته، فصاروا في عطش عظيم، وعندها تقابل الجيشان، وتواجه الفريقان، وأسفر وجه الإيمان، واغبر وجه الظلم والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان عشية الجمعة، واستمرت إلى السبت، الذي كان عسيراً على أهل الأحد. إذ طلعت عليهم الشمس، واشتد الحر وقوي العطش، وأضرمت النار عليهم من قبل صلاح الدين، في الحشيش الذي كانت تحت سنابك خيل الكفار، فاجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش، وحر النار وحر السلاح، وحر رشق النبال وحر مقابلة أهل الإيمان. وقام الخطباء يستثيرون أهل الإيمان، ثم صاح المسلمون وكبروا تكبيرة اهتز لها السهل والجبل، ثم هجموا كالسيل الدفاع؛ لينهزم الكفار ويؤسر ملوكهم، ويقتل منهم ثلاثون ألفاً حتى قيل: لم يبق أحد، ويؤسر منهم ثلاثون ألفاً حتى قيل: لم يقتل أحد، فلم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله إلا في عهد الصحابة، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رؤي وهو يقود نيّفاً وثلاثين أسيراً يربطهم في طنب خيمته، وباع بعضهم أسيراً بنعل يلبسها، وباع بعضهم أسيراً بكلب يحرس له غنمه. ثم أمر السلطان صلاح الدين جيوشه أن تستريح لتتقدم إلى فتح بيت المقدس، ففي هذه الاستراحة كيف كانت النفوس المؤمنة التي لا تيأس؟: الرؤوس لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من

خدودها، يوم عادت البيع مساجداً، والمكان الذي قيل فيه: إن الله ثالث ثلاثة، صار يشهد فيه: أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم سار نحو بيت المقدس؛ ليفتحها من الجهة الشرقية ويخرجهم منه، فكان له ذلك على أن يبذل كل رجل منهم ـ ويخرج ذليلاً ـ عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة، وعن الطفل دينارين، ومن عجز كان أسيراً للمؤمنين. فعجز منهم ستة عشر ألفاً كانوا أسراء للمسلمين، ودخل المسلمون بيت المقدس، وطهروه من الصليب وطهروه من الخنزير، ونادى المسلمون بالأذان، ووحدوا الرحمن، وجاء الحق، وبطلت الأباطيل، وكثرت السجدات، وتنوعت العبادات، وارتفعت الدعوات، وتنزلت البركات، وتجلت الكربات، وأقيمت الصلوات وأذّن المؤذنون، وخرس القسيسون. وأحضر منبر نور الدين الشهيد، عليه رحمة الله الجليل، الذي كان يأمل أن يكون الفتح على يديه، فكان على يدي تلميذه صلاح الدين، ورقى الخطيب المنبر في أول جمعة، بعد تعطل للجمعة والجماعة في المسجد الأقصى دام واحداً وتسعين عاماً، فكان مما بدأ به الخطيب خطبته بعد أن حمد الله أن قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[1] ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[2]).

معاشر المسلمين: إن الأقصى لم تعطل فيه الجمعة، ولم تعطل فيه الجماعة ومع ذا:

يئست أنفس ونامت عيون ... فجراح تغدو وتأتي جراح

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٥.

(٢) سورة الروم: الآية ٤.

فأين النجم من شمس وبدر وأين الثعلبان من الهزبر

المؤمن لا يعرف اليأس ولا يفقد الرجاء، إذ هو واثق بربه، ثم هو واثق بحق نفسه، ثم هو واثق بوعد الله، إن مرت به محنة اعتبرها دليل حياة وحركة؛ فإن الميت الهامد لا يضرب ولا يؤذى، وإنما يضرب ويؤذى المتحرك الحي المقاوم ـ كما قيل ـ كالذهب والحديد: يدخل النار فيستفيد، إذ يذهب خبثه ويبقى بهاؤه.

يؤلف إيلام الحوادث بيننا ويجمعنا في الله دين ومذهب

إن علينا ـ معشر المسلمين ـ أن نكون بحجم التحديات بصبر وثبات، ولسان حال كل واحد منا:

فيقصر دون باعي كل باع ويحصر دون خطبتي الخطيب

*****

إني أبيٌّ أبيٌّ ذو مغالبة وابن أبيّ أبيّ من أبيين

إن الوصول إلى القمة ليس الأهم، لكن الأهم البقاء فيها.
إن الانحدار إلى القاع ليس هو الكارثة، لكن الكارثة هو الاعتقاد أنه لا سبيل إلى الخروج من القاع. ليس والله الدواء: في بكاء الأطلال، وندب الحظوظ، إنه في الترفع عن الواقع، بلا تجاهل له. فالاستعلاء النفسي عليه، في تحرر للفكر من إرهاقه ويأسه وخباله، بإرادة قوية حرة أبية، يمكن تحويل عوامل الضعف إلى قوة بإذن رب البرية (إن رسول الله ﷺ حين حصل في أُحد ما حصل، شج وجهه وكسرت رباعيته، وانخذل عنه من انخذل، وإذا به يزيل الآثار النفسية من قلوب المؤمنين، بنقلهم إلى مواجهة جديدة في حمراء الأسد، لملاحقة المشركين الذين لو كانوا حقاً منتصرين؛ لما ولوا الأدبار قافلين، ولقضوا على البقية الباقية من المسلمين. وهذا يدل على حكمة الرسول

الأمين، عليه صلوات الله رب العالمين. وأبو بكر رضي الله عنه يأتي من بعده، وقد تربى على سنته، بعد أن كادت نواة الإسلام تضيع في طوفان الردة، فإذا به ينقل الأمة نقلة فذة، من واقع إلى واقع)[1] بتأب عن اليأس، وترفع على الهزيمة وحاله:

فليس يجلِّي الكرب رأي مسدد　　إذا هو لم يؤنس برمح مسدد

إن المستقبل لهذا الدين بلا منازع، ولكنه لا يتحقق بالمعجزات السحرية؛ بل بالعمل والبذل، والدعوة إلى الله من منطلقات صحيحة، على منهج أهل السنة والجماعة (ووعد الله لن يتخلف، لكنه لن يتحقق أبداً على يد أقوام لا يستحقونه، ولا يفهمون سننه، ولا يضحون من أجله)[2].

فإذا حاولت في الأفق منًى　　فاركب البرق ولا ترض الغماما

* * * * *

وما السيف إلا زبرة لو تركته　　على الخلقة الأولى لما كان يقطع

* * * * *

ألا إنني لا أركب اليأس مركبا　　ولا أكبر البأساء حين تغير

* * * * *

نفسي برغم الحادثات فتية　　عودي على رغم الحوادث مورق

أيها اليائس مت قبل الممات　　فإذا شئت حياة فالرجا

لا يضق ذرعك عند الأزمات　　إن هي اشتدت فأمل فرجا

* * * * *

البيض تصدأ في الجفون إذا ثوت　　والماء يأسن إن أقام طويلا

صانع السيف كمن يشهره　　في سبيل الله بين الجحفل

حقق الله لنا آمالنا　　وعلى الله بلوغ الأمل

---

(١) من أجل انطلاقة حضارية شاملة، عبد الكريم بكار، ص٢٠٠.

(٢) انظر: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، عبد الكريم بكار، ص٣٢٧.

الإشارة الثانية والعشرون: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث

أو ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[(١)]. ما أحوجنا إلى العدل على الطريق، وحاجتنا أشد له في النقد ومعالجة الخطأ[(٢)].

ويجدر بنا أن نذكر هنا: المنهج العادل، والطريقة المثالية لمعالجة الخطأ، وذلك حسبما رسمه لنا: من أمرنا الله عز وجل، بأن تكون لنا أسوة حسنة فيه ﷺ. وما أكثر المواقف العادلة في سيرته ﷺ، بل إن سيرته ﷺ كلها عدل، ونكتفي هنا بمثال واحد، ألا وهو موقفه ﷺ من صنيع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة، ويحسن أن نذكر القصة بتمامها؛ ليتضح لنا ذلك القسطاس المستقيم، الذي انتهجه الرسول ﷺ في معالجة هذا الخطأ، رغم شناعته وخطورته:

روى الإمام البخاري رحمه الله، في صحيحه، عن علي رضي الله عنه، قال: «بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير - وكلنا فارس - قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين»، فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ، فقلنا: الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ،

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

(٢) مضمون هذه الإشارة نقلاً عن: وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، للجليل.

لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد، أهوت إلى حجزتها ـ وهي محتجزة بكساء ـ فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه.

فقال النبي ﷺ: «ما حملك على ما صنعت؟». قال حاطب: والله ما بي ألا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن تكون لي عند القوم يد، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته، من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال ﷺ: «صدق، ولا تقولوا إلا خيراً». فقال عمر: إنه قد خان الله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم ـ»، فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»[1] اهـ.

من هذه الحادثة: نستطيع أن نحدد ثلاث مراحل للمعالجة العادلة للخطأ، مهما كانت ضخامته:

المرحلة الأولى: مرحلة التثبت من وقوع الخطأ:

في هذه الحادثة: قد تم التثبت عن طريق أوثق المصادر، ألا وهو الوحي، حيث أوحى الله عز وجل إلى الرسول ﷺ، بخبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة، وأين هي المرأة.

المرحلة الثانية: مرحلة التثبت من الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ:

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤).

وهذا الأمر متمثل في قوله ﷺ لحاطب: «ما حملك على ما صنعت؟»، وهذه المرحلة مهمة؛ لأنه قد يتبين بعد طرح هذا السؤال، أن هناك عذراً شرعياً في ارتكاب الخطأ، وتنتهي القضية عند هذا الحد، فإذا لم تنته عند هذا الحد، مثل ما ظهر في قضية حاطب، وأن العذر الذي أبداه لرسول الله ﷺ لم يكن مقنعاً، لكنه طمأن رسول الله ﷺ على صدق حاطب، وأنه لا زال مسلماً، نقول: إذا لم يكن العذر مقنعاً من الناحية الشرعية، فإنه يصار إلى:

المرحلة الثالثة: وفيها يتم جمع الحسنات والأعمال الخيرة لمرتكب الخطأ، وحشدها إلى جانب خطئه، فقد ينغمر هذا الخطأ أو هذه السيئة في بحر حسناته. وهذا هو الذي سلكه الرسول ﷺ مع حاطب ﷺ؛ حيث قال ﷺ لعمر عندما استأذن في مقتل حاطب: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ـ أو فقد غفرت لكم».

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله، كلاماً جيداً حول هذا الموضوع، حيث قال في رده على من قال: إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء:

«فالجواب: أن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريبة فيه، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر؛ فإنه يحتمل له ما لا يحتمل من غيره، ويعفي منه ما لا يعفي عن غيره؛ فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث؛ بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى الخبث».

ومن هذا: قول النبي ﷺ لعمر: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وقد ارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر النبي ﷺ أنه شهد بدراً، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتيب أثره عليه ما له من المشهد العظيم؛ فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

ولما حضّ النبي ﷺ على الصدقة، فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال: «ما ضرّ عثمان ما عمل بعدها»[(١)]، وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ، حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: «أوجب طلحة»[(٢)].

هذا موسى كليم الرحمٰن عز وجل، ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض حتى تكسرت، ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ، وقال: شاب بُعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، وأخذ بلحية هارون وجرّه إليه وهو نبي الله، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه، وربه تعالى يكرمه ويحبه. فإن الأمر الذي قام به موسى، والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذي به في الله: أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور، ولا تغير في وجهه، ولا تخفي منزلته.

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ١٠٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شواهد أشار إليها الألباني في تخريج فقه السيرة ص٤٠٥.

(٢) رواه أحمد (١/ ١٦٥). وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٥).

وهذا أمر معلوم عند الناس، مستقر في فطرهم، أنه من له ألوف من الحسنات؛ فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوهما، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه؛ فيغلب داعي الشكر داعي العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعاله اللائي سررن كثير

والله سبحانه، يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات ـ الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً ـ من العفو والمسامحة، ما لا يفعله مع غيرهم»[1] اهـ.



(١) مفتاح دار السعادة، ص١٩٢، ط٢ المصرية.



رفقاً بهم

الثالثة والعشرون:

(إن عند الناس من الهموم ما يكفيهم، وهم بحاجة إلى من يواسيهم لا من يعنفهم، وعلينا ألا ننسى أن البشر مخلوقات عاطفية، تجذبهم الكلمة الطيبة، وينفرهم التوبيخ والتقريع، وعند كل واحد منهم، من الاعتداد بنفسه ومواهبه وإمكاناته؛ ما يجعله يرى في الكلمة القاسية، عدواناً على كرامته ومجاله الخاص.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، في سياق ما يحتاجه الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر: فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده... وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف، ورووه مرفوعاً: (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به؛ فقيهاً فيما ينهى عنه؛ رفيقاً فيما يأمر به؛ رفيقاً فيما ينهى عنه؛ حليماً فيما يأمر به؛ حليماً فيما ينهى عنه)[1].

والداعية إلى جانب إيثاره الكلمة الرقيقة والأسلوب العذب، يؤثر أيضاً التشبيهات الجميلة، ويبتعد عن الأمثال والتشبيهات القبيحة أو المنفرة؛ وقد سمعت من يشبه لاقطات

---

(١) الفتاوى: ٢٨/ ١٣٧.

(التلفاز) على أسطح المنازل، بالرايات التي كانت تنصبها الموسات على بيوتهم في الجاهلية!!

ـ قلت: كيف لو رأى الأطباق اليوم ـ وهذا كلامٌ؛ الصمتُ خير منه بكثير!

إن قولنا: هذا خلاف الواقع؛ يؤدي عين المعنى الذي يؤديه قولنا: هذا كذب، لكنه أرفق وألطف. وإن قولنا: ما رأيكم لو عملنا كذا؛ ألطف من قولنا: اعملوا كذا، وكفوا عن كذا...

إن صيغة الأمر والنهي، لم تعد مقبولة في كل موضع؛ فالحضارة الحديثة، وسّعت دائرة الخصوصيات والحرية الشخصية، إلى أبعد حد ممكن، وإن من واجبنا أن نشعر المخاطب: أننا لا نتعدى على أي منهما)[1].

فالرفق الرفق (من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله) صحيح مسلم.

ويقول الله تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

(قال سيد قطب رحمه الله، حول ظلال هذه الآية:

«فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم... في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم، ولا

(١) انظر مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، عبد الكريم بكار، ص١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم، ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً: الاهتمام والرعاية، والعطف والسماحة، والود والرضا...

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس؛ ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه، في سماحة ندية، ووسعهم حلمه، وبره وعطفه، ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه، إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة»[1] اهـ).

(هذه هي صفات نبينا محمد ﷺ؛ الذي أمرنا الله ﷻ بالتأسي به، واقتفاء أثره، وهي نموذج لكل داعية يريد دعوة الناس إلى الخير، ويحببهم فيه. ولكن مع ذلك، بعضنا يفرّط في هذه الصفات، ويصدر منه من المواقف والتصرفات، ما ينم عن الغلظة، والفظاظة، وعدم الحلم، وسعة الصدر، متمثلاً في تقطيب الوجه، وانقباض النفس، والتعنيف على الأخطاء، وفقدان الرفق والأناة، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من نفرة الناس، وكرههم لمن هذه أخلاقه، فوق ما في ذلك من الإثم، وحرمان الأجر.

قال الرسول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[2].

---

(١) في ظلال القرآن، عند الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٦).

وثمة شيء آخر يتعلق بهذا الموضوع، ألا وهو ما درج عليه بعض المربين، والموجهين من الدعاة؛ من القسوة على من معهم، وتربيتهم على التقليد الأعمى، وعدم السماح لهم بإبداء آرائهم، ومعارضتهم، وقفل باب التشاور معهم.

وهذه الطريقة الخاطئة من التربية؛ تفرز لنا دعاة مقلدين متعصبين، منفذين لما يقال لهم بدون بصيرة، وهذه في الحقيقة: تربية عبيد لا تربية قادة، وهذا يخالف قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[(1)][(2)].



(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٢) وقفات تربوية للجليل - ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ -.

الإشارة الرابعة والعشرون: لا تضخم قضية على حساب أخرى

بمعنى: احذر الحَوَل على الطريق. فعلى المستوى الجماعي ترى من يقول:

* أهم شيء أن نعرف واقع المسلمين وواقع أعدائهم، يعني أهم شيء القضايا السياسية؛ لأننا نعيش الآن زماناً، ما هو بزمن الدراويش!

وهكذا تجد أصحاب هذا التيار، يحفظون كل شيء عن الشيوعية والعلمانية والماسونية، والبهائية، والقاديانية.. ثم تسأل عن الإسلام.. فلا يعرف أحد منهم عن الإسلام شيئاً!!

* وعلى العكس من ذلك، فقد تضخم جماعة قضية العبادات فيقولون: أهم شيء صلتك بالله؛ أهم شيء النية الطيبة، أهم شيء الصلاة؛ أن تكون زاهداً، تقياً. الخطأ هنا ليس في الاهتمام بها، لكن تُلغى القضايا الأخرى كلها على حساب هذا الجانب، فهذا هو الخطأ.

* وقد يأتي آخرون - وهذا موجود في الساحة الإسلامية - يقولون: أهم شيء وحدة الصف، يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[1]. فيجعلون هذه أهم قضية، ولو

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

كانت على حساب العقائد! يتحدون مع أناس تختلف عقائدهم عن عقائدنا. . . مُدَّعين أن أهم شيء أن نلتقي نحن الآن، في زمان تكالب فيه أعداؤنا علينا! والصحيح. . . أن نلتقي على أسس، نلتقي على دين، لا أن نلتقي على فوضى، وعلى خلاف في العقائد.

* فلا بد إذن، من التوازن في هذه القضايا وغيرها. فمدخل الشيطان عموماً هو: أن يضخم جانباً على حساب جانب آخر!![١].



(١) مداخل الشيطان على الصالحين، للخاطر.

الإشارة الخامسة والعشرون: ما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً

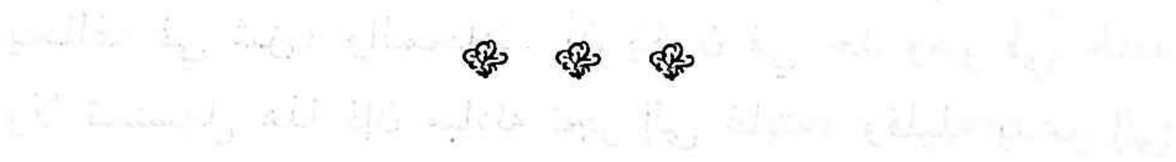
(فرّغ خاطرك للهم بما أُمِرْتَ به، ولا تشغله بما ضمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقياً كان الرزق آتياً. وإذا سد عليك بحكمته طريقاً من طرقه، فتح لك برحمته طريقاً لك منه.

فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم، انقطعت تلك الطريق، فتح له طريقين اثنين، وأجري له فيهما رزقاً أطيب وألذ من الأول، لبناً خالصاً سائغاً. فإذا تمت مدة الرضاع، وانقطعت الطريقان بالفطام، فتح طرقاً أربعة أكمل منها: طعامان وشرابان. فالطعامان: من الحيوان والنبات، والشرابان: من المياه والألبان، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات: انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة، لكنه سبحانه فتح له ـ إن كان سعيداً ـ طرقاً ثمانية، وهي أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء. فهكذا الرب سبحانه، لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا، إلا ويؤتيه أفضل منه، وأنفع له. وليس ذلك لغير المؤمن. فإن يمنعه الحظ الأدنى الخسيس، ولايرضى له به؛ ليعطيه الحظ الأعلى النفيس، والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما منع منه، وبين ما ذخر له[1].

---

(١) أي ادخر وخبئ له.

بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً، وبقلّة الرغبة في الآجل وإن كان علياً. ولو أنصف العبد ربه ـ وأنى له بذلك ـ لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها، أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك. فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه، وليسلك الطريق الموصلة إليه فـ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾(١) ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾. والله المستعان)(٢).



(١) سورة الفرقان: الآية ٦٢.

(٢) الفوائد لابن القيم، ص٦٦.

الإشارة السادسة والعشرون: تحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك

على الطريق يحدوك ابن القيم ﷺ فيقول:

(إذا كان الله ورسوله في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها، فإن المشاقة: أن يكون في شق، ومن يخالفه في شق، والمحادة: أن يكون في حد وهو في حد، ولا تستسهل هذا فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثيره. وكن في الجانب الذي فيه الله ورسوله، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته. وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر، ولا سيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحداً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، بل يعده الناس ناقص العقل، سيء الاختيار لنفسه.

وربما نسبوه إلى الجنون، وذلك من مواريث أعداء الرسل، فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب، والناس في شق وجانب آخر. ولكن من وطن نفسه على ذلك، فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول، يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه، وإلى صبر تام على معاداة من عاداه، ولومة

من لامه، ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا، وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في بادئ الأمر، فإن نفسه وهواه، وطبعه وشيطانه، وإخوانه ومعاشريه، من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله، وصار ذلك الصعب سهلاً، وذلك الألم لذة، فإن الرب شكور، فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه إلى الله وإلى رسوله، ويريه كرامة ذلك، فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه، ويظفر بقوته وفرحه وسروره، ويبقى من كان محارباً له ـ على ذلك ـ بين هائب له، ومسالم له، ومساعد وتارك، ويقوى جنده، ويضعف جند العدو.

ولا تستصعب مخالفة الناس، والتحيز إلى الله ورسوله، ولو كنت وحدك، فإن الله معك، وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك. وأعظم الأعوان لك على هذا، بعد عون الله؛ التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما، هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتى قام الطمع والفزع، فلا تطمع في هذا الأمر، ولا تحدث نفسك به. فإن قلت: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع والفزع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله، ليس لأحد مع الله شيء)[1].

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) الفوائد لابن القيم، ص١٣٠ ـ ١٣١.

مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]. «ما أخطاك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك»[٢]. «لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك؛ رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٣].

فليكن حالك على الطريق؛ إلهي:

إليك وإلّا لا تشد الركائب ... ومنك وإلا فالمؤمّل خائب
وفيك وإلّا فالكلام مضيّع ... وعنك وإلا فالمحدث كاذب

أخيراً خذها من ابن القيم:

(إذا استغنى الناس بالدنيا؛ فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا؛ فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم؛ فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم، وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة؛ فتعرف أنت إلى الله، وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة. قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار، تأتي عليه ساعة: لا يطيع الله فيها بذكرٍ أو صلاة، أو قراءة أو إحسان. فقال له رجل: إني أكثر البكاء. فقال: إنك أن تضحك وأنت مقرٌّ بخطيئتك، خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه. فقال: أوصني. فقال: دع الدنيا لأهلها، كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن في الدنيا كالنحلة: إن أكلت أكلت طيباً؛ وإن

---

(١) سورة هود: الآية ٥٦.

(٢) رواه أحمد بسند صحيح.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

أطعمت أطعمت طيباً؛ وإن سقطت على شيء؛ لم تكسره، ولم تخدشه)[١].

وخذها أخرى من ابن القيم رحمه الله، يوم يقول:

أنفع الناس لك: رجل مكّنك من نفسه، حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع إليه معروفاً، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك. فانتفاعك به في الحقيقة؛ مثل انتفاعه بك أو أكثر.

وأضرّ الناس عليك: من مكّن نفسه منك، حتى تعصي الله فيه، فإنه عون لك على مضرتك ونقصك[٢].

رَبِّ تقبَّل عملي ... ولا تخيِّب أملي
أصلح أموري كلها ... قبل حلول الأجل

❀ ❀ ❀

(١) الفوائد لابن القيم.
(٢) الفوائد لابن القيم.

خاتمة

هذا مجمل ما أردت قوله، وأرجو الله ألا أكون ممن تخدعه الشمس بطول ظله، أو تغره النفس بكثره وقلّه، إن هي إلا إشارات من إشارات: بعضها مُتمنى فات، وبعضها لا يزال في بطون المؤلفات. لم آت فيها على آخر الإرادة، ولا أزعم أني أوفيت على الغاية في الإفادة.

قد قلت بمقدار ما اجتهدت، وما شهدت إلا بما علمت، ومن جعل أنفه في قفاه: فالسوأة أن يفتح فاه.

على أنني كنت قد عجزت، ووعدت بالكلام أكثر فما أنجزت، لكن لا ضير أن أصف النجم في سراه، وإن لم أستقر في ذراه.

إن هي إلا لَبِنة على الطريق، وأرجو أن تكون بقدر الياقوت والعقيق، وما أراني بعد قد شفيت غلة النفس؛ فإنها تنظر إلى كثير وكثير.

وأنا أشد فقراً إلى عون من الله، وتثبيت وتوفيق. أسأل الله أن يجعل هذه الإشارات، من الباقيات الصالحات، ويصلح السريرة ويحسن الطوية.

ويا أيها القارئ: (ما وجدت فيه من صواب وحق، فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال، لا إلى من

قال... وما وجدت فيه من خطأ، فإن قائله لم يأل جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال.

والنقص في أصل الطبيعة كامن

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عدت غلطاته؛ أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته)[(١)].

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك، على خاتم المرسلين محمد، وآله أجمعين.

فرغ منه في يوم الأحد ٢٣/ ٣/ ١٤٢١هـ ـ مكة حرسها الله.

علي بن عبد الخالق القرني

---

(١) انظر خاتمة مدارج السالكين لابن القيم.

فهرس الآيات

فهرس أطراف الأحاديث

فهرس الأبيات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة